



جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الأسطورة في تفسير الفخر الرازي

إعداد

مؤيد أحمد سعيد خلف

إشراف

أ. د. إحسان الديك

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2022م

الأسطورة في تفسير الفخر الرازي

إعداد

مؤيد أحمد سعيد خلف

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2022/05/11م، وأجيزت:

أ. د. إحسان الديك

المشرف الرئيسي

أ. د. ناصر الدين الشاعر

الممتحن الداخلي

د. عبد الخالق عيسى

الممتحن الداخلي

أ. د. محمد نعامنة

الممتحن الخارجي

التوقيع

التوقيع

التوقيع

التوقيع

الإهداء

إلى أبي وأمي

إلى زوجتي الحبيبة شروق

إلى أولادي الأعزاء: أوس، وإياس، وقصي، وقيس

إلى أساتذتي الكرام

إلى أستاذي الدكتور إحسان الديك، الذي كان وما زال باعثَ همّة، ومنارة إلهام

إلى زملائي الطلبة

إلى كل متدبر يُعمل العقل، ويدقق الفكر في القرآن العظيم

إلى دعاة الإصلاح من أهل الإسلام

إلى كل باحث عن الحق والحقيقة

أهدي هذا العمل المتواضع

الشكر والتقدير

الحمد لله الذي أمدني بالطاقة والوسع لإنجاز هذا العمل، ومنّ علي بالرغبة فيه، والصبر على البحث والتحرير، ووفّر لي ظروف التمكين والتوفيق، فله سبحانه جزيل الشكر، وجميل العرفان، وحسن الثناء.

والشكر موصول من شغاف القلب لزوجتي العزيزة، التي ما برحت تكيف البيئة المواتية للدراسة، في خضم البيت المضطرب بصخب الأبناء الأعزاء.

وأخص بالشكر الوفير، الأستاذ الفاضل الدكتور إحسان الديك، الذي لولاه ما تحركت الهمة في هذه المهمة، فله جزيل الامتنان على ما فيه من اهتمام بالغ بالموضوع، وعلى تشجيعه، وما كان يبديه من ملاحظات مهمة، وآراء مقوِّمة.

وأشكر أعضاء لجنة المناقشة، الذين سببزلون الوسع في المقاربة والتصويب، خدمة للبحث، وتوجيها للباحث في التسديد والتجويد.

ولكم جميعا فائق الشكر وبالف شكر والتقدير

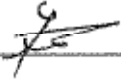
الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل عنوان:

الأسطورة في تفسير الفخر الرازي

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه
حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي
أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالب: مؤيد أحمد سعيد خلف

التوقيع: 

التاريخ: ١١ / ٥ / ٢٠٢٢ م

فهرس المحتويات

الإهداء	ج
الشكر والتقدير	د
الإقرار	هـ
فهرس المحتويات	و
الملخص	ح
المقدمة	1
التمهيد	6
الفصل الأول: الأسطورة في الظواهر الطبيعية	11
انحباس الشمس	12
انشقاق القمر	16
وظيفة الشهب	21
نتق الجبل	25
انفلاق البحر	28
النار التي لا تحرق	32
ريح سليمان	39
نقل عرش بلقيس	42
مائدة السماء	47
الفصل الثاني: الأسطورة في الإنسان ولوازمه	53
رفع عيسى إلى السماء	53
إحياء الموتى	62
نوم أصحاب الكهف	70
موت سليمان	74
يد موسى	76
رزق مريم	78
عمر نوح	80
الفصل الثالث: الأسطورة في الحيوان	86

88.....	طُيور إبراهيم.....
94.....	حوت موسى.....
97.....	حوت يونس
100	هدد سليمان
104	تسبيح الطير
105	حيوانات تتكلم
111	الفصل الرابع: الأسطورة في النبات والجماد.....
112	الشجر يتكلم
123	نخلة مريم
126	عصا تضيء
128	انفجار الحجر المحمول بعيون الماء.....
132	حجر موسى الهارب
135	الحجر يتكلم
137	الخاتمة.....
140	المراجع العلمية
b	Abstract

الأسطورة في تفسير الفخر الرازي

إعداد

مؤيد أحمد سعيد خلف

إشراف

أ. د. إحسان الديك

الملخص

تتناول هذه الدراسة الأسطورة في تفسير الفخر الرازي؛ حيث تكمن أهمية بحث هذا الموضوع في الكشف عن أبعاد أسطورية، تسلت إلى تفسير القرآن العظيم، فتبين عن مدى تمثّلات بعض مرويّات التفسير، مع كثير من الأساطير والخرافات، التي كانت تحكم المعرفة لدى حضارات العالم القديم، واقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

جاء في التمهيد ترجمة موجزة للرازي، ونبذة عن تفسيره، ومصادر التفسير.

وأما الفصل الأول، فتناول الأسطورة في الظواهر الطبيعية، وقد تمثّلت في انحباس الشمس، وانشقاق القمر، ووظيفة الشهب في حرق الشياطين، ونتق الجبل، وانفلاق البحر، والنار التي لا تحرق، وريح سليمان، ونقل عرش بلقيس، ومائدة السماء.

وأما الفصل الثاني، فأتى على الأسطورة في الإنسان ولوازمه، وبحثت فيه ما تسلل لموضوعات رفع عيسى، عليه السلام، إلى السماء، وإحياء الموتى، ونوم أصحاب الكهف، وموت سليمان عليه السلام، ويد موسى البيضاء، عليه السلام، ورزق مريم، وعمر نوح المديد، عليه السلام.

وأما الفصل الثالث، فكان عن الأسطورة في الحيوان، وشمل ذلك طيور إبراهيم عليه السلام، وحوّات موسى عليه السلام، وحوّات يونس عليه السلام، وهدهد سليمان عليه السلام، وتسبيح الطير، وحيوانات تتكلم بلغة الإنسان.

وأما في الفصل الرابع، فعرض للأسطورة في النبات والجماد، وبخاصة الشجر المتكلم، ونخلة مريم، والعصا المضئية، وانفجار الحجر المحمول بعيون الماء، والحجر الهارب بثوب موسى، والحجر المتكلم بلسان الإنسان.

ووقفتُ فيما بحثته من موضوعات، على تجلياتها الأسطورية، وما يعتريها من ارتدادات قديمة، كاشفا جذورها الأولى.

وتناولت في الخاتمة، أهم النتائج والتوصيات، التي أفضت إليها الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة؛ تفسير؛ الفخر الرازي.

المقدمة

في دراستي هذه: الأسطورة في تفسير الفخر الرازي، تناولتُ التصورات الأسطورية التي تسلت إلى التفسير القرآني، في تفسير الفخر الرازي، وأبرزت النصوص الميثولوجية للحضارات القديمة ذات العلاقة، وكذلك أساطير المعتقدات الدينية قبل الإسلام، ورصدتُ البعد المؤثر في تلك التصورات، وقدمت آراء مختلفة قديمة وحديثة حول تلك التصورات.

إنَّ رصد تمثّلات التفسير المتعلق بالمنشأ الأسطوري بالعرض والتحليل، والكشف عن تمظهراتها في البنية التفسيرية، وشيوعها في مظانّ فهم النص المقدّس، تساعد في إعادة إنتاج تفسير بعيد عن الإسرئيليات، بحيث يتواءم والسياق القرآني الأصل، من أجل النهوض بالأمة، فالمحاولات التجديدية المعتمدة تأتي متصلة بالتراث والأصالة، ومنغرس في تربة الماضي، ومنه تنبعث نحو الحداثة، الأمر الذي سيجعل من هذه الدراسة إسهاماً متواضعاً في هذا السياق الذي يجمع بين الأصالة والحداثة، فتتيح الوقوف على المكونات الأسطورية، في أكثر مصادر الأمة اعتماداً لبناء الفكر والوجدان؛ من أجل عزل الدخيل والدخن عن جزء مهم جداً من التراث العظيم.

ولا أزعم أنني جمعت مسارات الأساطير كلها في تفسير الفخر الرازي، فحصرها يتطلب دراسة أكبر مما تسمح به طبيعة هذه الدراسة، وإنما تناولت بالدراسة ما اشتهر وظهر، وما ارتأيته يحقق الكفاية، ولا أدعي أن ما سأقدمه من معالجة للنصوص يعدّ الحقيقة المطلقة.

لقد اخترت تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازي فخر الدين موضوعاً لدراستي، كونه من أجلّ التفاسير ويكاد يخلو من الإسرئيليات¹، التي توفر بيئة خصبة لنمو الخرافات والأساطير، وصاحبه ممن نبغ في العقليات، ووصف بسيد الحكماء²، يقول فيه ابن خلكان:

¹ ينظر: أبو شهبة، محمد بن محمد: الإسرئيليات والموضوعات في كتب التفسير، ط4، مكتبة السنة، القاهرة، 1408هـ، ص134.

² ينظر: ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م، ص462.

"فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل"¹، ويصفه ابن حجر برأس في الذكاء والعقلانيات²، والدراسة ستكشف عن مدى تسلل الأساطير إلى هذا التفسير، مع ما عليه صاحبه من العقلانية والحكمة، فما بالناس مع غيره ممن تساهل في الأخذ بالاسرائيليات؟

وتضافرت عوامل متعددة لاختيار هذه الدراسة، فنحن بحاجة لفاعلية عقلية دينية بعيدة عن الإسرائيليات والأساطير، ويندرج عملي بهذه الدراسة في هذا السبيل، إضافةً إلى غياب الدراسات في هذا المسار، دفعني لخوض هذا المجال، حتى يصبح للبحث قيمة واعتبار، كما أن بذل الجهد في علوم الدين يضاعف الأجر والثواب، إذا اقترن بنية الإصلاح وخدمة المسلمين، وهذا العمل المتواضع يأتي في الذود عن روح الإيمان الأصيل، من خلال سبر غور التفسير، والكشف عن دخن الأساطير، فرغبت في الثواب المضاعف عند رب العالمين.

ويمكن تحديد مشكلة البحث فيما يأتي:

- ما هي مصادر التفسير؟
- وما حدّ الإسرائيليات؟
- وما هي الأساطير التي برزت في تفسير الفخر الرازي فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية؟
- وكيف بدت الأسطورة المتعلقة بالإنسان ولوازمه؟
- وما هي الاساطير التي ظهرت في الحيوانات ؟
- وهل وردت أساطير في النباتات ؟
- وكيف تجلت الأساطير في الجمادات ؟

¹ ابن خلكان، أبو العباس: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، د.ط، دار صادر، بيروت، 1978م، ج4، ص249.

² ينظر: العسقلاني، أحمد بن حجر: لسان الميزان، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 2002م، ج6، ص318.

وتتمثل أهمية هذه الدراسة، في أنها تُلقي الضوء على الأساطير في تفسير القرآن العظيم، وتكشف بعضاً من هذه التصورات، التي مازجت التفسير، مرتدية عباءة الفُصَّاص والإخباريين، كما تسبر غورها، وتبين عن تجلياتها.

إنّ هذه الدراسة برصدها للأساطير في تفسير الفخر الرازي، سابقة في هذا المضمار، ممّا يجعلها سُهمة متواضعة في تنقية التفسير من مدخولات الأمم قبل الإسلام، ومن دخيل الأهواء الإسرائيلية.

واتبعتُ في هذه الدراسة المناهج البحثية الآتية:

- المنهج الاستقرائي: وأهدف به إلى استخراج المرويات ذات العلاقة من نصوص التفسير.
- المنهج التحليلي: اعتمدته لتحديد المعاني الميثولوجية وتحليلها.
- المنهج الوصفي: أصف الأسطورة وأجمع المعلومات حولها.
- المنهج التاريخي: أهتم من خلاله برصد بعض الأساطير في التفسير، وأستحضر نظائرها من الماضي السابق عليها لدى الأمم القديمة.

ومع كل ذلك أتبعُ طريقة البحث المقارن؛ لغرض تحديد مواطن الاتفاق.

لقد طالعت العشرات من الكتب، و تصفّحت مواقع الانترنت، ومحركات البحث الالكترونية لعلّي أعثر على كتاب أو بحث يتخصص في الأسطورة في التفسير القرآني بعامة، علاوة على التخصص في تفسير الفخر الرازي خاصة، إلا أنني لم أجد الى ذلك سبيلاً، وما وجدته مجرد شذرات متناثرة في تضاعيف بعض الكتب؛ بما لا يجعلها بحثاً متخصصاً في مجال هذه الدراسة، وما عثرت عليه، قد مسّ موضوعات متفرقة من مباحث متفرقة في التفاسير مسّاً طفيفاً غير منظوم في سلك واحد، باستثناء دراسة سابقة لنفس للباحث نفسه في تفسير آخر بعنوان: الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير، حيث تناول الباحث في الفصل الأول، تفسير ابن كثير، من حيث مصادره، والإسرائيليات التي تسالت

إليه، فأردفت الأساطير والخرافات إلى التفسير، وقدم نبذة عن حياة ابن كثير، وظروف عصره، وعرف
بمكانة تفسيره لدى العلماء، ومنهجه في تفسيره، وموقفه من الإسرائيليات، ورصد مركب "أساطير
الأولين" في القرآن الكريم، مستعرضا مفهومه في التفسير، الذي عني مكتوبات الأوائل دون أن يعني
الذم والرد.

وتناول في الفصل الثاني، أساطير الخلق والتكوين، وتناول الفصل الثالث، أساطير خرق العوائد
الطبيعية، فعرض لأسطورة الطوفان العظيم، وطيور الأبابيل وناقاة صالح، وحية موسى، ونملة سليمان،
كما عرضها التفسير، مقدما نظائر من الأساطير تحاكي ما في التفسير من أقاويل، وفي الفصل الرابع،
تحدث عن أساطير المسخ والتحويل، وأما في الفصل الخامس، فتناول البحث أساطير الرموز¹، وهذه
الدراسة السابقة ركزت على رصد الأساطير المتسللة إلى تفسير ابن كثير، ومقارنتها بنظائرها لدى
الأمم الأخرى، ومدى التشابه والاتفاق مع ما قدمه المفسرون، في حين تأتي هذه الدراسة على تفسير
آخر عرف صاحبه بنبوغه في العقلية، لترصد جانباً آخر من متسللات الأساطير، تختلف موضوعاتها
عما كان في الرسالة السابقة.

وقسمت الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة، عرضت في التمهيد ترجمة للرازي، ونبذة
عن تفسيره، ومصادر التفسير، وأما في الفصل الأول فتناولت الأسطورة في الظواهر الطبيعية، متحدثا
فيه عما تسلل لموضوعات انحباس الشمس، وانشقاق القمر، ووظيفة الشهب، ونتق الجبل، وانفلاق
البحر، والنار التي لا تحرق، وريح سليمان، ونقل عرش بلقيس، ومائدة السماء.

وأما الفصل الثاني، الموسوم بالأسطورة في الإنسان ولوازمه، فعرضت فيه رفع عيسى إلى السماء،
وإحياء الموتى، ونوم أصحاب الكهف، وموت سليمان، ويد موسى، ورزق مريم، وعمر نوح.

¹ خلف، مؤيد أحمد سعيد: الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2015، صفحة
ح-ط

ثم عرضت في الفصل الثالث الأسطورة في الحيوان، فتحدثت عن طيور إبراهيم، وحيوت موسى، وحيوت يونس، وهدد سليمان، وتسبيح الطير، وحيوانات تتكلم بلغة البشر.

وتناولت في الفصل الرابع (الأسطورة في النبات والجماد)، فتطرق إلى الشجر الذي يتكلم بلغة الإنسان، ونخلة مريم، وعصا تضيء في الليلة الظلماء، وانفجار الحجر المحمول بعيون الماء، وحجر موسى الهارب بثوبه، والحجر المتكلم بلسان البشر.

يلي ذلك الخاتمة، وقد اشتملت على النتائج والتوصيات، التي خلصت إليها الدراسة.

ولا أخفي ضخامة التحديات التي واجهتني خلال الدراسة، نظرا لكونها جديدة في مضمونها، وحساسة في موضوعها، مما استدعت سعة التفتيش، وعمق التمحيص، وكثرة التفحيص، فجسامة المهمة ألزمتني العمل الدؤوب والجهد المضني.

ولا أزعم الكمال في بحثي هذا، وحسبي أنني بذلت الوسع، واستهضت الطاقة، لعلّه يكون سهمة للباحثين في هذا الميدان، فيستدركون الغفلة، ويصوبون الزلة، والمجال زاخر للبحث مائع للفكر. مع جزيل الشكر للأستاذ الدكتور المشرف إحسان الديك، الذي كان وما زال باعث همّة، ومنارة إلهام، وما فتئ يقارب ويصوب، فجزاه الله خير الجزاء.

التمهيد

ترجمة الرازي

أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التيمي البكري الطبرستاني الرازي الشافعي، المعروف بالفخر الرازي، وبابن خطيب الري، مفسر ومتكلم وفقه وأصولي وحكيم وأديب وشاعر وطبيب، شارك في كثير من العلوم الشرعية والعربية والحكمية والرياضية¹، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمئة للهجرة على قول الذهبي²، في مدينة الري، وتوفي بهراة سنة ست وستمئة للهجرة³.

كان الإمام فخر الدين عظامه وقته في كثير من العلوم، ونبغ في العقلية، ووصف بسيد الحكماء⁴، يقول فيه ابن خلكان: "فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات، وعلم الأوائل"⁵، ويصفه ابن حجر برأس في الذكاء والعقلية⁶.

له التصانيف المفيدة في فنون عدة؛ منها تفسير القرآن الكريم، جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جدا، وفي علم الكلام المطالب العالية، ونهاية العقول، وفي أصول الفقه المحصول، والمعالم، وفي الحكمة الملخص، وشرح الإشارات، وفي الطلسمات السر المكتوم، وفي النحو شرح المفصل، وله في الطب شرح الكليات للقانون⁷ وغير ذلك العشرات من المؤلفات⁸.

¹ ينظر: كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، ج3، ص558.

² ينظر: الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، ط2، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997م، ج43، ص213.

³ ينظر: ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م، ص466.

⁴ ينظر: السابق، ص462-465.

⁵ ابن خلكان، أبو العباس: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، د.ط، دار صادر، بيروت، 1978م، ج4، ص249.

⁶ ينظر: العسقلاني، أحمد بن حجر: لسان الميزان، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 2002م، ج6، ص318.

⁷ ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص249.

⁸ ينظر: السابق، ج4، ص249. كحالة: معجم المؤلفين، ج3، ص559. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص470. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج43، ص213-214.

تفسير الفخر الرازي

يقع تفسير الفخر الرازي المعروف باسم "التفسير الكبير ومفاتيح الغيب"، الذي اعتمدته للدراسة في ستة عشر مجلدًا، ويتألف كل مجلد من جزأين، إضافة إلى المجلد السابع عشر الذي حوى الفهارس، وقد بلغت صفحاته زهاء ثمانية آلاف ومئتين.

يعدّ هذا التفسير من أجل التفاسير، ويكاد يخلو من الإسرائيليات¹، وقد حظي "بشهرة واسعة بين العلماء؛ وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير بالأبحاث الفياضة الواسعة في نواح شتى من العلم"²، وكان الرازي "مولعًا بكثرة الاستنباطات والاستطرادات في تفسيره"³، وإطالاته كادت تغطي على كونه كتاب تفسير، ولذلك زعم بعضهم أن فيه كل شيء إلا التفسير⁴.

مصادر التفسير

عندما ابتعد الزمن عن عهد النبوة مست الحاجة لتفسير القرآن الكريم من أجل أقوام حديثي العهد بالإسلام، أو هم على غير اللسان العربي ممن دخلوا الإسلام، وهؤلاء الأقوام يشتركون بثقافتهم أو كتبهم المقدسة مع بعض ما تناوله القرآن من أخبار الأمم ومعتقداتها، وقصص الأولين، ومسائل الخلق والتكوين.

ومع هكذا حاجة للتفسير تجد الأساطير مدخلا لها، خاصة ولم يرد عن النبي الكريم تفسيرًا جامعًا، كما نقل الزركشي عن القاضي الخوئي: "أما القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يُعلم إلا بأن يسمع من الرسول عليه السلام، وذلك متعذر إلا في آيات قلائل"⁵، كذلك يقول محمد الذهبي: "إن ما نقل عن

¹ ينظر: أبو شهبة، محمد بن محمد: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ط4، مكتبة السنة، القاهرة، 1408هـ، ص134.

² الذهبي، محمد حسين: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، د.ت، ج1، ص208.

³ السابق، ص210.

⁴ ينظر: أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ص134. الذهبي: التفسير والمفسرون، ص210.

⁵ الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ج1، ص16.

الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة من التفسير، لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض، على تدرج، كلما بعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم¹، فألقى القصاص "الكثير من الإسرائيليات والخرافات والأباطيل، وقد تلقفها الناس منهم؛ لأن من طبيعة العوام الميل إلى العجائب والغرائب"²، ولذلك نجد الدكتور محمد عجيبة يقول: "وخلاصة القول، إن الأساطير قد مزجت فهم النص القرآني من بعض الأوجه"³.

وفي هذا السياق يقول أبو شهبه: "وما روي من قصص الأنبياء والمرسلين من إسرائيلييات باطلة لا تليق بمقام الأنبياء، وعصمتهم، إلى نحو ذلك، وما أكثره في كتب التفسير"⁴، وهذه الإسرائيليات تلقي بدلالاتها "على ما كان يفعله من أسلم من يهود ونصارى، من إدخال ما كان يشغل رؤوسهم قبل إسلامهم، من الحديث والتفسير، فلم يكن الموضوع مجرد خيال، أو وهم، خلق خلقاً، بل له أساس ما، يهم العالم والباحث درسه، وله قيمته الذاتية، وإن لم تكن له قيمته الإسنادية"⁵، وربما هذا ما دفع ابن تيمية للقول: إن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم، ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها إسناد: التفسير، والملاحم، والمغازي"⁶، لذلك كانت المرويات "تشتل على الغث، والسمين، والمقبول، والمردود"⁷، وبات "التفسير فضاء مناسباً للوضع، وكثرت فيه الرواية حتى اقترن بالقص، وارتبط بالملاحم والمغازي، وبات مثلها منبئاً لا أصل له"⁸.

وحدد الذهبي مصادر التفسير، فقال: "اعتمد المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في كتاب الله نفسه، وعلى ما روه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ما روه عن

¹ الذهبي: التفسير والمفسرون، ص100.

² أبو شهبه، محمد بن محمد: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ط4، مكتبة السنة، القاهرة، 1408هـ، ص89

³ عجيبة، محمد: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1994م، ص88

⁴ أبو شهبه، محمد بن محمد: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ص5

⁵ أمين، أحمد: ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2003م، ج2، ص143

⁶ ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم: مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: عدنان زرزور، ط3، دار القرآن الكريم، بيروت، 1979م، ص58-59

⁷ ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، د.ت.، ص439

⁸ السعفي، وحيد: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ط1، الأوائل، دمشق، 2006م، ص31

الصحابة في تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طرق الاجتهاد، والنظر في كتاب الله تعالى، وقد روت لنا كتب التفسير كثيرا من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير، قالوها بطريق الرأي والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من الصحابة¹، ومع طريق الرأي هذه "أدى إلى أن يلجؤوا، مضطرين، إلى أهل الكتاب؛ ليستفسروا منهم عن تفصيلات حكايات الأمم الماضية، وخاصة الذين أسلموا منهم"²، وأصبحت "الإشارة القرآنية الخاطفة... عالما كاملا لمخيال لا حدود له، يستمد عناصره من الموروث الثقافي العربي والأعجمي، الإسلامي والمسيحي واليهودي، المحلي والكوني"³، والسبب في ذلك حسب ابن خلدون هو "أن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والامية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود؛ فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود والنصارى... وهؤلاء مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم، فامتألت التفاسير من المنقولات عندهم"⁴، وفي هذا الاتجاه ذهب أحمد أمين، فقال: "إذا سمعوا إشارة إلى بدء الخليقة طلبوا بقية القصة، وإذا تليت عليهم آية فيها إشارة إلى حادثة لبني إسرائيل لم يفتنعوا إلا باستقصائها، وكان الذي يسد هذا الطمع، هو التوراة، وما علق عليها من حواش وشروح، بل وما أدخل عليها من أساطير، وقد دخل بعض هؤلاء اليهود في الإسلام فتسرب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار، ودخلت في تفسير القرآن، يستكملون بها الشرح، ولم يتخرج حتى كبار الصحابة، مثل ابن عباس من أخذ قولهم"⁵.

¹ الذهبي، محمد حسين: التفسير والمفسرون، ص99

² الحاجي، محمد عمر: موسوعة التفسير قبل عهد التدوين، ط1، دار المكتبي، دمشق، 2007م، ص171

³ السعفي، وحيد: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص45

⁴ ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، ص439

⁵ أمين، أحمد: فجر الإسلام، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م، ص201

ومن الجدير ذكره أن وصف المرويات الدخيلة إلى الإسلام بالاسرائيليات وردت على وجه التغليب، يقول نعناعة: "اسم الإسرائيليات ليس على جهة الحقيقة، وإنما هو من قبيل التغليب"¹، وهو ما قاله أيضا فولتن: "يطلق علماء المسلمين كلمة إسرائليات على جميع العقائد غير الإسلامية، ولا سيما تلك العقائد والأساطير التي دسها اليهود، أو النصارى، في الدين الإسلامي، منذ القرن الأول الهجري"²، واستكشف السعفي ذلك، فقال مؤكدا أن الاسرائيليات: "ضاربة في قدم ثقافات أخرى، احتك بها اليهود اضطرابا في هجرتهم الدائمة، بعضها فارسي، وبعضها بابلي، وبعضها مصري قديم، ثم تبين أن ذلك البعض الفارسي، مأتاه هندي من الفيدا وآدابها، وذلك البابلي سومري عريق، وذلك المصري إفريقي أو يوناني"³.

¹ نعناعة، رمزي: الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، ط1، دار القلم، دمشق، 1970م، ص74

² فلوتن، فان: السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1934م، ص109

³ السعفي، وحيد: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص145

الفصل الأول

الأسطورة في الظواهر الطبيعية

أنظرُ إلى الأشجار حول المنزل؛ من تين ونخيل وتفتح وإجاص وعنب ورمّان... وأتأمل ما تجود به من ثمار طيبة؛ لذة للأكلين، وهي تضرب جذورها في التراب الواحد، وترتوي من الماء الواحد، وتتعرض لشمس واحدة، في حين تتفاوت في ثمارها لونا وشكلا وطعما، أمعن الفكر في هذه الآيات الكونية، وأقول: كيف يمكن لماء وتراب وضوء أن يتكوّن منه هذا الثمر اللذيذ الطيب المتنوع، فلو قلنا لأحدهم دون أن يشاهد هذا من قبل: أتعلم أنه من التراب والماء والضوء تتكون ثمار حلوة المذاق بنكهات زكية، لقال: هذا إذن المحال.

ثم يمت وجهي إلى الأفق، فلاح لناظري في أقصاه طائرة سفر معلقة في جو السماء؛ بمعدنها الثقيل وركابها الكثيرين، فلو غاب عن أحدهم سنن الطيران وعلوم آيات الفضاء والفيزياء، ثم سألته: هل لحديد يركبه العشرات أن يطير في الفضاء، كأنه نسر يحلق في جو السماء؟ لقال لك: إذن هذه أسطورة... وإذا أمعنا الفكر في كل شيء من الذرة إلى المجرة، ووقفنا على نظامها، فإنها تتطوي في تصرفها على مخرجات الوعي والعقل والحكمة، وتُلزِمنا أن نعلم أنها مصنوعة من حكيم خبير... انظرُ إلى تصرف الخلايا والذرات، وانظر إلى النبات والأشجار، وانظر إلى الأجرام والمجرات، انظرُ نظراً المدقق الكاشف، فلا يسعك إلا أن تخرّ للأذقان تسبح الخلاق العليم...

وقفتُ تحت شجرة الأسكنديا وزهورها تفوح بالرائحة الزكية، وليس للشجرة أنف، وأشرقت أزهارها بالبياض الصافي والصفرة المتألّنة، وما للشجرة من عين، كل ذلك لتصيح إلى النحل وقبيله، أن تعال تعال؛ ليأخذ من رحيق زهرها العسلي، وما للشجرة من فم أو لسان تميز طعم عسلها، كل ذلك كي يلقح النحل زهرها، من زهرة إلى أخرى في ترده المجذوب، وهل مآلات كل هذا إلا أن تعمل الثمار الصفراء، وعندما تتضج تهجم عليها الحيوانات؛ فتأكلها؛ كي تحمل البذور بداخلها؛ فتلقيها في مكان

آخر، تستنبت نفسها تارة أخرى في غريزة للبقاء ذكية، وإنتاج فيه معنى العقل والحكمة، دون أن يكون لها عقل... تدبّر وتُخطّط دون أن يكون لها عين تبصر زهرها الملون، ولا لها أنف تشم به الرائحة العطرية الجاذبة، ولا لها فم تتذوق الرحيق والثمار الزاكية الناضجة، ف سبحانه ربي ما أعظم صنعك وحكمتك وتدبيرك، أفصتَ على النبات والجماد فعقلتَ دون عقل، وأبصرتَ دون عين، وتذوقتَ دون لسان، وتزاوجت دون عشق، وتوالدت دون رحم، وحرصتَ على بقاء نفسها وجيناتها دون وعي وشعور... فمن يطلب بيّنة، فالكون كله آيات بينات.

في هذا الفصل سأعرض لموضوعات أتى عليها التفسير الكبير من توقف الشمس عن جريانها، وانشقاق القمر لنصفين، وتحول الشهب من ظاهرة كونية إلى وظيفة دينية واعية، وارتفاع الجبل كمظلة في الجو، وانفلاق البحر طرقا ونوافذ، وقد غادرت مياهه خاصية السيولة دون انجماد، وما عادت النار حارة تحرق، وصارت الريح مركبة جوية بيد سليمان، ونقل الشيء لا يحتاج لناقل معهود، وإنما يطير في الهواء أو يغوص في الأرض بلمح البصر، والطعام ينزل على الخوان من السماء.

انحباس الشمس

أورد الرازي في سياق الاستدلال على بعثة النبي محمد الأمين، من مرويات السابقين خبراً، تضمن أحداثاً تكون للنبي الكريم، وفيه "توقفت الشمس والقمر عن مجراهما"¹، كما أمكن الشمس أن تشرق من الغرب، وتغرب من الشرق².

وقد أورد البخاري ومسلم حديثاً مرفوعاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام برواية أبي هريرة، كما ذكره النووي في باب الصدق، من أن نبياً غزاً، "فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم"³.

¹ الرازي، محمد بن عمر: تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، 1995، م 2، ج 3، ص 40.

² ينظر: السابق، م 7، ج 13، ص 8.

³ النووي، يحيى بن شرف: رياض الصالحين، تحقيق: عبد الله الدرويش، دار الفكر، بيروت، 1996، م 1، ص 61.

وهذا الحديث عن أبي هريرة، الذي عرف أنه تتلمذ على كعب الأحبار، وقد تلقن عنه من إسرائيلياته¹، وكان أبو هريرة "أكثر الصحابة ثقة فيه، ورواية عنه"²، وقد روى مسلم عن التابعي بسر بن سعيد فقال: "اتقوا الله، وتحفظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله، و يحدثنا عن كعب، ثم يقوم. فأسمع بعض من كان معنا، يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب، وحديث كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"³، خاصة وهذا الحدث من نصوص التوراة الواضحة، والمعنون بـ "الشمس تقف في كبد السماء" من سفر يشوع، حيث جاء فيه: "حينئذٍ كلم يشوع الرب، يوم أسلم الرب الأمور بين أمام بني إسرائيل، وقال أمام عيون إسرائيل: يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي أيلون. فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر؟ فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل، ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده سمع فيه الرب صوت إنسان؛ لأن الرب حارب عن إسرائيل"⁴، وسفر ياشر مجموعة أناشيد عبرية، أخذت منه هذه الأسطورة، واستخدمت لتمجيد شخص يشوع، وتقديمه في صورة المالك لقدرات لم تكن لموسى ذاته⁵.

ولم يكن هذا الحدث ابن التوراة، فقد جاء في الأساطير السالفة نظائر له، تكشف عن تحكم الآلهة في الشمس والقمر خارج سننها المعتادة، وفي سياق معركة أيضاً، ففي الأسطورة الرافدية نينورتا ابن الإله إنليل يرفض التحذير، ويقرر خوض المعركة:

"...أخذ طريقه

¹ ينظر: أبو رية، محمود: شيخ المضيرة أبو هريرة، ط4، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1993م، ص98.

² أبو رية، محمود: أضواء على السنة المحمدية، ط6، دار المعارف، القاهرة، د.ت. ص180.

³ النيسابوري، مسلم بن الحجاج: التمييز، ط1، تحقيق: عبد القادر المحمدي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1430هـ، ص95.

⁴ العهد القديم، يشوع 12:10-14

⁵ ينظر: هووك، صموئيل هنري: منعطف المخيلة البشرية بحث في الأساطير، ط1، ترجمة: صبحي حديدي، دار الحوار، سورية، 1983م، ص124.

نحو أرض المعركة، فجمّد

رعبا السماء والأرض

أعدّ الرمح والترس

فانهار الجبل واندك

أمام تقل جيوش نينورتا الجاهزة للحرب

وعندما وضع البطل هراوته في مكانها

غادرت الشمس موضعها وانسحب القمر¹

وجاء في أسطورةٍ تصور نزول الكوتيين من الجبال، ونهبهم المزارع وتدميرها، كون الشمس قد وقفت لا تتحرك في أفقها، وشيبه بهذا ما ورد في ملحمة جلجامش من إشارات لسجود الشمس وكواكب أخرى لأشخاص؛ للتدليل على أهميتهم².

وفي أساطير الإغريق، لعبت الشمس في مسيرها غير المعتاد من غروبها في المشرق، علامة على إرادة الآلهة في جعل أترية بن ليلوبس ملكا³، وفي سياق العلامة والاهتمام تسرد الأفسنا المقدسة لدى الزرادشتيين معلومة عن أورشيدار المخلص، والمؤمن بأورمازد من أنه "يستطيع أن يأمر الشمس: توقفي، ستتوقف الشمس عشرة أيام بلياليها، وعندما يحدث ذلك، سيعتنق كل الناس ديانة مازداياسنا الخيرة"⁴.

¹ الشواف، قاسم: ديوان الأساطير سومر وأكاد وأشور، ط1، دار الساقى، بيروت، 1997م، ج3، ص66.

² ينظر: الأحمد، سامي سعيد: المعتقدات الدينية في العراق القديم، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، 2013م، ص31.

³ ينظر: غريمال، بيار: الميتولوجيا اليونانية، ط1، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت، 1982م، ص72.

⁴ عبد الرحمن، خليل: أفسنا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، ط2، روافد للثقافة والفنون، دمشق، 2008م، ص747.

ونجد في الأساطير المصرية توقفاً للشمس، مما يدفع تحوت لإنقاذ حورس ابن الإلهة إيزيس، " صرخت إيزا صرخة قوية استوقفت مركب الشمس، فأرسل الإله رع رسوله تحوت ليستطلع الأمر، وجاء تحوت، وعرف ما حصل لحورس، فبدأ بقراءة تعاويذه السحرية"¹.

وإن كان استطاع يوشع إيقاف الشمس كما في التوراة، فإن في الأساطير الهندية تمكن كريشنا على نقيض فعل يوشع، وذلك بخلق "غروب شمس زائف في أثناء إحدى المعارك، ليربك الجيش الذي يحاربه أصدقائه"².

ولم يخلُ عهد النبي الكريم من روايات تدل على تحكمه بحركة الشمس، فقد روي عن أسماء بنت عميس، قالت: كان رسول الله يوحى إليه، ورأسه في حجر علي، فلم يصلَّ العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله: صليت العصر يا علي؟ قال: لا، قال رسول الله: اللهم إنه في طاعتك وطاعة نبيك، فاردد عليه الشمس، قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت، ويورد ابن كثير العديد من الروايات في هذا الحدث، منكرًا لصحته سندًا، ومنكرًا لمتنه عقلاً، بحجة لو أنه حدث لراه الكافر والمؤمن³، ومثل هذه الروايات التي تتحدث بخوارق بعيدة عن المعقول، فيما يتعلق بحركة الشمس والقمر المروية عن ابن عباس عن النبي، قال فيها ابن الأثير: فأعرضت عنها لمنافاتها العقول⁴، وهو ما يكشف عن اندفاع الأساطير من خلال الرواية على التفسير والثقافة الدينية.

وروي حدث من هذا القبيل في حركة غير اعتيادية للشمس اقتصر على حشد من الناس دون سواهم، وهو ما يعرف بالمعجزة الشمسية لفاطمة المسيحية في البرتغال سنة 1917م، حيث اجتمع حشد من الناس، ولاحظوا الشمس "مصفرة بصورة تدعو إلى الاستغراب... وكانت تتحرك على نحو شاذ،

¹ الماجدي، خزعل: الدين المصري، ط1، دار الشروق، عمان، 1998م، ص130.

² آس، جفري: المعجزات، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011م، ص156.

³ ينظر: ابن كثير، إسماعيل: شمائل الرسول، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت، ص137-140.

⁴ ينظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم: الكامل في التاريخ، تحقيق: خيري سعيد، دار التوفيق للطباعة، القاهرة، 2004م، ج1، ص23.

وتقتفي أثر دائرة في السماء، وأخرى، وأخرى، وبدا أنها تهبط بحركة لولبية، وتقترب من الأرض، ودام المشهد قرابة ثماني دقائق، وفي النهاية عادت إلى مكانها وسطوعها العادي"¹، وإن كان البعض رأى في مثل هذا الظواهر كرامات ومعاجز للقديسين، فإن "العلم لا يرى فيها شيئاً من ذلك، بل إن ظهورها يرتبط بحلول ظروف جوية خاصة تساعد على تكوينها"²، هذا على افتراض صحة الواقعة، وحصولها فعلاً.

إن بقاء حركة الأجرام الفلكية "سنة من سنن الله في هذا الكون، فالشمس والقمر آيتان من آيات الله... إن إثبات تعطيل سير هذه السنن وفق مشيئة الله محتاج إلى دليل بنفس قوة الدليل الأول، من ناحية الثبوت والدلالة"³؛ ومشية الله قضت "والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" (يس: 38-40)، وهذا ما علمه النبي لصحابته الكرام، عندما كسفت الشمس يوم موت ابنه إبراهيم، فتراءى للناس إنما سبب ذلك موت إبراهيم، فقال: "إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آية من آيات الله، فإذا رأيتموه فصلوا" وفي رواية أخرى: "آيتان من آيات الله"⁴.

انشقاق القمر

ذهب الرازي في قوله تعالى: " اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ" (القمر: 1) إلى الرأي الذي اختار أن انشقاق القمر حدثٌ قد تم للنبي الكريم، فقال: "هو حق، إذ القمر انشق، والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق، وحصل فيه الانشقاق، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة، وقالوا: سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، آية الانشقاق بعينها معجزة،

¹ آش: المعجزات، ص136.

² صالح، عبد المحسن: الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، عالم المعرفة، الكويت، 1990م، ص196.

³ العدوي، خميس بن راشد، خالد بن مبارك الوهبي: الإيمان بين الغيب والخرافة، ط1، مكتبة الغبيراء، عُمان، 2007م، ص167.

⁴ العسقلاني، أحمد بن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م، ج6، ص365.

فسأل ربه فشقه ومضى"¹، علما أن المفسرين مختلفون في حدوثه، وليس كما ذكر: "بأسرهم"، وهو ما قاله تاليا منكرا له: "وقال بعض المفسرين: المراد سينشق، وهو بعيد ولا معنى له"²، وقد بين سبب منعهم من انشقاقه، فقال: "وإنما ذهب إليه ذلك الذهاب، لأن الانشقاق أمر هائل، فلو وقع لعم وجه الأرض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر"³، ويعلل عدم اشتهاه خبر انشقاق القمر وبلوغه العالم بأسره، قائلا: "أما المؤرخون فتركوه، لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم، وهو لما وقع الأمر قالوا: بأنه مثل خسوف القمر، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر، فتركوا حكايته في تواريخهم"⁴، ويشد في إنكاره على المعترض على فكرة الانشقاق والالتئام، فيقول: "وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام، وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السماوات"⁵، ورفض رأي من يرى أن حدوثه إنما يكون من علامات قيام الساعة⁶.

إن ظاهرة الخسوف، وتدرج القمر بين هلالين ألهم المخيال البشري أن يتصور أساطير كثيرة حول القمر وتغيراته، فالكيثيون السيبيريون يعتقدون أن الهلال هو رجل يعيش في السماء مع زوجته الشمس، وأنه "نزل إلى الأرض يوما ليرى كيف يعيش الناس عليها، ولكن الإلهة الشريرة خوسيديم قامت تلاحقه هناك، فقفز من أمامها ولجأ إلى الشمس في الخيمة، بيد أنه لم يتسن له أن يدخل سوى نصفه، ومن هذا النصف أمسكت الشمس به، أما خوسيديم فقد أمسكت بالنصف الآخر، وبدأت كل منهما تشده إلى طرفها إلى أن انفلق إلى نصفين، وهكذا فقد القمر أحد نصفيه، نصفه الأيسر، أي قلبه، وحاولت الشمس جاهدة لكي تحييه، صنعت له قلبا من الفحم، وهددته في المهدي، كما يفعل الشامانات في طقوسهم، ولكن عبثا،

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 15، ج 29، ص 29.

² السابق، م 15، ج 29، ص 29.

³ السابق، م 15، ج 29، ص 29.

⁴ السابق، م 15، ج 29، ص 29.

⁵ السابق، م 15، ج 29، ص 29.

⁶ ينظر: السابق، م 15، ج 29، ص 30.

وعندها أمرت الشمس الهلال أن يضيء ليلاً بنصفه الباقي¹، وكثيراً ما أوحى الهلالان المتقابلان؛ في أول الشهر القمري وآخره للمخيل القديم بقسمين، على صورة قرنين²، يتشكل منهما هذا الجرم السماوي.

علماً أن القمر أكبر من ربع قطر الأرض، ويبتعد عنها زهاء 384 ألف كيلومتر³، مما يتيح رؤية هذا الحدث العظيم لكثير من سكان كوكب الأرض يومذاك، والقمر بكتلته، وبحجمه الكبير أعظم من انشقاق البحر لموسى، نظراً لمناط الواقعة المتمثلة في الجرم العظيم، وتخطيها حدود المكان، وتجاوز الفئة المستهدفة محيط النبي الكريم، ولكن أليس من المستغرب نزول هذه الآية في النصف الأول من المرحلة المكية، بينما تتوالى الآيات لاحقاً متحدثاً عن مطالبة المشركين بآية كونية، دون أن تشير إلى أن الآية قُدمت لهم من قبل⁴؟!

وقد تنبه بعض العلماء قديماً لتأويلات مختلفة، فقال قوم: لم يقع انشقاق القمر بعد، وهو منتظر؛ أي اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره، وكذا قال القشيري، وذكر الماوردي أن هذا قول الجمهور، وقال: لأنه إذا انشق ما بقي أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء، وقال الحسن: اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية. وقيل: وانشق القمر، أي وضح الأمر وظهر؛ والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح... وقيل: انشقاق القمر، هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يسمى الصبح فلماً، لانفلاق الظلمة عنه، وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه⁵.

¹ ألبيدل، م.ف.: سحر الأساطير دراسة في الأسطورة التاريخ الحياة، ط1، ترجمة: حسان ميخائيل إسحق، دار علاء الدين، دمشق، 2005م، ص157.

² ينظر: أوفيد: مسخ الكائنات، ترجمة: ثروت عكاشه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1992م، ص53. الشواف: ديوان الأساطير، ج3، ص65، جاء في وصف الإله نينورتا "البطل ذو القرنين المسوطين كقرني هلال".

³ ينظر: شاهين، نقولا وزملاؤه: الموسوعة العلمية الميسرة، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م، ص16-17.

⁴ ينظر: العمري، أحمد خيرى: السيرة مستمرة، ط1، عصير الكتب للنشر والتوزيع، مصر، 2018م، ص241.

⁵ القرطبي، محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ط1، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006م، ج20، ص72-73.

وفي سياق التفسير الحديث للآية في ظل التطور المعرفي، وارتفاع المستوى العلمي، ومنافاة الفهم السابق لحقائق العلوم الحديثة، ذهب ابن عاشور لاحتمالات الانشقاق بمعنى الخسف، في تصور يتفق وسنن الطبيعة، ومع محاولته الابتعاد عن الفهم الخرافي، قال: "يجوز أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدث في وجهه هوة لاحت للناظرين في صورة شقه إلى نصفين بينهما سواد حتى يخيل أنه منشق إلى قمرين، فالتعبير عنه بالانشقاق مطابق للواقع؛ لأن الهوة انشقاق، وموافق لمراى الناس؛ لأنهم رأوه كأنه مشقوق، ويجوز أن يكون قد حصل في الأفق بين سمت القمر وسمت الشمس مرور جسم سماوي؛ من نحو بعض المذنبات، حجب ضوء الشمس عن وجه القمر بمقدار ظل ذلك الجسم على نحو ما يسمى بالخسوف الجزئي، وليس في لفظ أحاديث أنس بن مالك عند مسلم، والترمذي، وابن مسعود، وابن عباس عند البخاري ما يؤكد هذا، ومن الممكن أن يكون الانشقاق حدثا مركبا من خسوف نصفي في القمر على عادة الخسوف؛ فحجب نصف القمر، والقمر على سمت أحد الجبلين قد حصل في الجو ساعتئذ سحب مائي انعكس في بريق مائه صورة القمر مخسوبا؛ بحيث يخالطه الناظر نصفًا آخر من القمر دون خسوف، طالعا على جهة ذلك الجبل، وهذا من غرائب حوادث الجو. وقد عرفت حوادث من هذا القبيل بالنسبة لأشعة الشمس، ويجوز أن يحدث مثلها بالنسبة لضوء القمر على أنه نادر جدا... ويؤيد هذا ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: كسف القمر على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: سحر القمر، فنزلت اقتربت الساعة الآية، فسماه ابن عباس خسوفًا تقريبا لنوعه، وهذا الوجه لا ينافي كون الانشقاق معجزة لأن حصوله في وقت سؤالهم من النبي، صلى الله عليه وسلم، آية، وإلهام الله إياهم أن يسألوا ذلك في حين تقدير الله كاف في كونه آية صدق، أو لأن الوحي إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، بأن يتحداهم به قبل حصوله دليل على أنه مرسل من الله، إذ لا قبل للرسول، صلى الله عليه وسلم، بمعرفة أوقات ظواهر التغيرات للكواكب، وبهذا الوجه يظهر اختصاص ظهور ذلك بمكة دون غيرها من العالم... بإطلاق الانشقاق على حدوث

هوة في سطح القمر إطلاق حقيقي ، وإطلاقه على انطماس بعض ضوءه استعارة، وإطلاقه على تفرقه
نصفين مجاز مرسل"¹.

والقمر في صريح المنقولات من المشهورات، هو تشبيه وتمثيل للنبي محمد الأمين، كقولهم في استقباله
عليه الصلاة والسلام، حين قدم المدينة مهاجرا:

"طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مـا دعا الله داع
أيها المبعوث فلينا جئت بالأمر المطاع"²

وكما قال عبد الله بن رواحة في مدحه، صلى الله عليه وسلم، مشبها له بالبدر في نوره:

"تحمله الناقلة الأدماء معتجرا بالبرد كالبدر جلى ليلة الظلم"³
ونجد ابن رواحة أتى في شعره على لفظة (انشق) في وصف النبي، كأسلوب تبدو ألفته اللغوية لديهم
حينذاك، في انسجام مع معانيها اللغوية، حيث ورد في المعجم: انشقَّ الفجر، أي طلع وظهر⁴: فقال:

"وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشقَّ معروف من الصبح ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع"⁵
وكذلك قالت جويرية بنت الحارث متأولةً النبي بالقمر: "رأيت قبل قدوم النبي، صلى الله عليه وآله
وسلم، بثلاث ليال، كأن القمر أقبل يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أخبر بها أحدا من
الناس، حتى قدم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فلما سببنا رجوت الرؤيا، فلما أعتقني

¹ ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج27، ص169-170.

² الخضري، محمد: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ط2، تحقيق: علي بلطجي، دار الخير، دمشق، 1988م، ص100.

³ قصاب، وليد: ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، ط1، دار العلوم، الرياض، 1981م، ص164.

⁴ المعجم الوسيط، مادة: شق، ص515.

⁵ السابق، ص93-94.

وتزوجني، والله ما كلمته في قومي، حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي تخبرني الخبر، فحمدت الله عز وجل"¹.

كما وصفت العديد من الآيات النبي محمد بأنه مبعث النور، الذي يخرج الكافرين من الظلمات إلى الأنوار، قال تعالى: " يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ۖ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ" (المائدة: 15)، وقوله سبحانه: " وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا" (الأحزاب: 46)، وظهر النبي محمد، آخر الأنبياء، اقترن باقتراب الساعة، وهو ما روي عنه عليه الصلاة والسلام: "بعثت الساعة كهاتين"².

وظيفة الشهب

فسر الرازي ظاهرة الشهب بحراسة السماء من استراق الشياطين، في قوله تعالى: " إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ" (الحجر: 18) و"السبب في ذلك أن الجن كانت تتسمع لخبر السماء، فلما بعث محمد، صلى الله عليه وسلم، حرس السماء، ورصدت الشياطين، فمن جاء منهم مسترقا للسمع رمي بشهاب فأحرقه؛ لئلا ينزل به إلى الأرض، فيلقيه إلى الناس، فيخلط على النبي أمره، ويرتاب الناس بخبره، فهذا هو السبب في انقضااض الشهب"³.

وقال: "الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء، فربما سمعوا كلام الملائكة، وعرفوا به ما سيكون من الغيوب، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب، فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب، فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها"⁴، وأخذ بعرض الطعون على هذا التفسير، وردّها، فقال: "كيف يجوز أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون بالتجويز أن الشهب تحرقهم

¹ النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، ط1، تحقيق: مركز البحوث، دار التأصيل، القاهرة، 2014م، ص56.

² ابن حجر: فتح الباري، ج8، ص894.

³ الرازي: التفسير الكبير، م15، ج30، ص61، ص153، ص158.

⁴ السابق، م13، ج26، ص121.

ولا يصلون إلى مقصودهم البتة؟ وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل؟ فكيف من الشياطين الذين لهم مزية في معرفة الحيل الدقيقة؟ والجواب: إن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين، وإلا لم يذهبوا إليه، وإنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب، فلما هلكوا في بعض الأوقات، وسلموا في بعض الأوقات، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها... ولقائل أن يقول: إنهم إذا صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة، أو إلى غير تلك المواضع، فإن وصلوا إلى مواضع الملائكة احترقوا، وإن وصلوا إلى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلاً، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل، إذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال، وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا يقدموا عليه أصلاً... والأقرب في الجواب أن نقول هذه الواقعة إنما تتفق في الندرة، فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين... وقالوا: دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلًا قبل مجيء النبي، صلى الله عليه وسلم، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي، صلى الله عليه وسلم، بزمان طويل ذكروا ذلك، وتكلموا في سبب حدوثه، إذا ثبت أن ذلك كان موجودًا قبل مجيء النبي، صلى الله عليه وسلم، امتنع حمله على مجيء النبي صلى الله عليه وسلم... والأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي، صلى الله عليه وسلم، لكنها كثرت في زمان النبي، صلى الله عليه وسلم¹.

ورد على تساؤل بعضهم باعتبار أن الشيطان مخلوق من نار، فكيف يعقل إحراق النار بالنار؟ فقال: "يحتمل أن الشياطين، وإن كانوا من النيران، إلا أنها نيران ضعيفة، فإن وصلت نيران الشهب إليهم، وتلك النيران أقوى حالًا منهم، لا جرم صار الأقوى مبطلًا للأضعف، ألا ترى أن السراج الضعيف إذا رجع في النار القوية فإنه ينطفئ، فكذلك ههنا"².

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 13، ج 26، ص 122-123.

² السابق، م 13، ج 26، ص 122-123.

والرازي يرى أن الشهب شعل تنفصل عن الكواكب، فتُرمى بها الشياطين، وما ذاك إلا قبس يؤخذ من نار، والنار باقية¹، وذكر الرازي وجهاً آخر، لتفسير كون الكواكب رجوماً للشياطين، ولكنه لم يقرره، كما قرر ما سبق، فقال: "جعلناها ظنونا ورجوماً بالغيب للشياطين الإنس، وهم الأحكاميون من المنجمين"².

وعرض الرازي لرأي من زعم أن ظاهرة الشهب لم تكن موجودة قبل بعثة النبي الكريم، ونقل ذلك عن ابن عباس وأبي بن كعب³، ولكنه رجّح أن "الأقرب إلى الصواب أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث إلا أنها زيدت بعد المبعث، وجعلت أكمل وأقوى"⁴.

وقد تبين في العلم الحديث أن الشهب عبارة عن حجارة سماوية من بقايا الكواكب السيارية، أو المذنبة التي انفجرت، وتتكون من النيكل والصخور، تدخل الجو المحيط بالأرض بسرعة كبيرة، فترتفع حرارتها عند الاحتكاك بالهواء فتشتعل، ونراها مضيئة⁵، وبعضها إن لم يحترق، وكان أكبر، أحدث آثاراً على الأرض، كحفرة الأريزونا منذ تسعة وأربعين ألف عام، ومما عثر عليه في الأرض من بقايا النيازك يعود إلى مئة وثمانين مليون عام⁶، والمجموعة الشمسية عامرة بما لا يحصى من الأجسام الصغيرة، التي ترحم كواكبها وأقمارها وليست الأرض فحسب⁷، وهو ما يؤكد أن ظاهرة الشهب قديمة، وليست ظاهرة طارئة ببعثت النبي محمد الأمين، وليست خاصة بكوكب الأرض فقط.

¹ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م15، ج30، ص60.

² السابق، م15، ج30، ص61.

³ ينظر: السابق، م15، ج30، ص159.

⁴ السابق، م15، ج30، ص159.

⁵ ينظر: البدوي، خليل: الموسوعة الفلكية، ط1، دار عالم الثقافة، عمان، 1999م، ص110.

⁶ ينظر: إسلاحيه، أوليفيه: مقدمة في علم الفلك، ط1، ترجمة: طارق كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2017م، ص112. شاهين، نقولا، وزملاؤه: الموسوعة العلمية الميسرة، ص15.

⁷ ينظر: زكي، أحمد: في سبيل موسوعة علمية، ط5، دار الشروق، بيروت، 1992م، ص544.

يحاول الإنسان تفسير الظواهر الطبيعية من حوله، فتختلط الخرافة والخيال بالملاحظة¹، وتنشأ على ذلك معتقدات دينية لا علاقة لها بحقيقة الظاهرة، "فأثناء ألعاب أقيمت تكريماً لقيصر، طلع في السماء شهاب بذنوب طويل، حصل ذلك سبعة أيام متتالية، فأيقن الشعب أن روح قيصر تُستقبل بين الآلهة"²، وليس بعيد عن هذا الاعتقاد ما جاء في إنجيل متى: "لما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية، في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم، قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمه في المشرق، وأتينا لنسجد له، فلما سمع هيرودس الملك اضطرب، وجميع أورشليم معه، فجمع كل رؤساء الكهنة، وكتبة الشعب وسألهم: أين يولد المسيح، فقالوا له: في بيت لحم اليهودية؛ لأنه هكذا مكتوب بالنبى، وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا، لست الصغرى بين رؤساء يهوذا؛ لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل، حينئذ دعا هيرودس المجوس سرّاً، وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر، ثم أرسلهم إلى بيت لحم، وقال: اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي، ومتى وجدتموه فأخبروني؛ لكي آتي أنا أيضاً وأسجد له، فلما سمعوا من الملك ذهبوا، وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم، حتى جاء، ووقف فوق؛ حيث كان الصبي، فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً"³.

هذه الظواهر الطبيعية تختلف في تعليلها، فبينما كانت تعد الشهب والمذنبات علائم عقديّة، ومقذوفات نارية تقتل الشياطين، مع أنها مجرد نيازك تحترق في الغلاف الجوي الأرضي، نتيجة الاحتكاك، فهي اليوم لدى البعض تظهر في صورة أطباق طائرة في بعض الحالات، ولكن العلماء يتحققون ممّا يصف الناس ويعتقدون، ويبينون زيف ما يعللون⁴.

¹ ينظر: شبير، ماكس: معجم الأساطير، ط1، ترجمة: حنا عبود، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1999م، ص7.

² مونتسكيو: تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط، ط1، ترجمة: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011م، ص115.

³ إنجيل متى: 2: 1-10

⁴ ينظر: صالح: الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، ص191.

نتق الجبل

فسر الرازي نتق الجبل ورفع الطور من كتاب الله: "وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ" (الأعراف: 171)، فقال: "أصل النتق قلع الشيء من موضعه، والرمي به... فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخا في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها (أي التوراة) وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خر كل واحد منهم ساجدا على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى خوفا من سقوطه، فلذلك لا ترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى، ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة"¹، وكان فوقهم مثل السقيفة والظلة²، "لأجل أن يعطوا الميثاق بقبول الدين... على أنهم إذا هموا بالرجوع عن الدين، فאלله يعذبهم بأي نوع من أنواع العذاب أراد، فلما هموا بترك الدين أظل الله الطور عليهم، وهو المراد من قوله: "وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ" (النساء: 154)، ونظيره قوله تعالى: "وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (الأعراف: 171)، واعتبر الرازي أن "رفع الطور آية باهرة عجيبة، تبهر العقول، وترد المكذب إلى التصديق، والشاك إلى اليقين"³، ومع قول الرازي هذا في موطن، وجدناه يقول في موطن آخر: "إن إضلال الجبل لا شك أنه من أعظم المخلوقات، ومع ذلك فقد أصروا على كفرهم وصرحوا بقولهم سمعنا وعصينا"⁴، من قوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا" (الأعراف: 171) "وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ" (البقرة: 93).

وفي معرض الرد على منكري هكذا حدث مخالف لسنن الله في الطبيعة، وموجب للإكراه على الإيمان، يقول الرازي وقد وصف هؤلاء المنكرين بالملحدين: "من الملاحدة من أنكر إمكان وقوف النقييل في الهواء بلا عماد، وأما الأرض فقالوا: إنما وقفت لأنها بطبعها طالبة للمركز، فلا جرم وقفت في

¹ الرازي: التفسير الكبير، م8، ج15، ص48-49.

² ينظر: السابق، م8، ج15، ص48-49.

³ السابق، م2، ج3، ص115.

⁴ السابق، م2، ج3، ص203.

المركز، ودليلنا على فساد قولهم أنه سبحانه قادر على كل الممكنات، ووقوف الثقل في الهواء من الممكنات، فوجب أن يكون الله قادراً عليه... وقال بعضهم: إطلال الجبل غير جائز؛ لأن ذلك لو وقع، لكان يجري مجرى الإلجاء إلى الإيمان، وهو ينافي التكليف. أجاب القاضي بأنه لا يلجئ؛ لأن أكثر ما فيه خوف السقوط عليهم، فإذا استمر في مكانه مدة، وقد شاهدوا السماوات مرفوعة فوقهم بلا عماد، جاز ههنا أن يزول عنهم الخوف، فيزول الإلجاء ويبقى التكليف¹.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحدث لا أثر له في التوراة، ولا وجود له في أسفار موسى الخمسة، إنما نشأ من خطأ المفسر اليهودي²، فعندما صعد موسى إلى رأس جبل سيناء ليكلم الرب، ويتلقى الشريعة والوصايا، بقي الشعب "في أسفل الجبل"³ لئلا يسقطوا، وقال موسى للرب: "لا يقدر الشعب أن يصعد إلى جبل سيناء"⁴، ووقفوا في الجزء السفلي من الجبل، "ولكن يهود العصور المتأخرة المولعين بالغرائب اختاروا الفهم السيئ للعبارة، فشرحوها بـ"تحت الجبل"، واخترعوا حكاية رفع الجبل فوق رؤوس البشر"⁵، وأصل هذه القصة في الكتاب اليهودي، "عبوداه زاراه" ونصها: حيث قيل لنا: إنه في تلك الحادثة قد سترتكم بالجبل كغطاء، وكذلك نقرأ في "السبت": تعلمنا هذه الكلمات أن القدوس، تبارك، قلب الجبل فوقهم كأنه القدر، وقال لهم: إن تتقبلوا التوراة فخير، وإلا سيكون هنا قبركم"⁶؛ وفي ترجمة أخرى، من كتاب شبات، "يقول حما بن حسا: إن هذا يعلمنا أن الرب المقدس، قلب عليهم الجبل، رأساً على عقب، كبرميل مقلوب، وقال لهم: إذا تقبلتم التوراة، فذلك حسن، وإذا لم تقبلوها فإن هذا سيكون

¹ الرازي، التفسير الكبير، م2، ج3، ص116.

² ينظر: تيسدال، سان كلير: المصادر الأصلية للقرآن، ط1، ترجمة: عادل جاسم، منشورات الجمل، بغداد، 2019م، ص93.

³ الخروج 19: 17، التنبيهة: 4: 11.

⁴ الخروج 19: 23.

⁵ تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص93.

⁶ السابق، ص93.

قبركم"¹؛ وذلك أنهم في وقت سابق رفضوا العمل بها بسبب ثقلها عليهم²، وتجدر الإشارة أن هذين الكتابين هما من التلمود البابلي، ويعودان إلى ما قبل الإسلام³.

إن فكرة رفع الجبل ليست جديدة على المخيال البشري، ففي التصورات القديمة الأسطورية، قد طلب الإله (موت) من الإله (بعل) رفع الجبل، فأسرع (بعل) للتنفيذ، كما ورد في أسطورة قديمة:

"ثم توجه شطر جبل كنكيني

فأرفع الجبل على يديك

والتل على أعالي رؤوس النخيل"⁴

وليس الإله (بعل) فعل هذا الفعل الخارق وحده بين الآلهة، فالإله الهندي كريشنا، وهو طفل، فعل ذلك أيضاً، تروي الأساطير أنه كان "في طفولته ولدا يهوى اللعب، ولكن ذلك لم يمنعه من تحقيق المعجزات: قتل العفاريت، وحماية الرعاة من العواصف، برفع جبل هوفارد هانو على إصبعه، وحمله كالمظلة إلى أن تنتهي العاصفة"⁵.

لقد تعاقبت المدارس الدينية في تفسير أسفار موسى وترجمتها لقصة تلقى موسى الوصايا والشرعية على جبل سيناء، من (سفع الجبل)، إلى (أسفل الجبل)، إلى (تحت الجبل)، حتى وصلت السردية التلمودية الهاجداوية إلى موتيف قلب الجبل على بني إسرائيل، واستعار القرآن العظيم عناصر القصة السابقة في خطابه الخاص لينشئ رسالته الخاصة⁶.

¹ هاشم، محمد يونس: بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 2010م، ص98.

² تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص93.

³ ينظر: جريفر، مايكل ويسلي: الجبل المرفوع واختيار إسرائيل في القرآن، ترجمة: هدى عبد الرحمن النمر، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ص18-19. www.tafsir.net

⁴ السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى، ط13، دار علاء الدين، دمشق، 2007م، ص350.

⁵ أليبيديل: سحر الأساطير، ص230.

⁶ ينظر: جريفر: الجبل المرفوع واختيار إسرائيل في القرآن، ص10، ص14، ص42.

انفلاق البحر

فسر الرازي حادثة انفلاق البحر، من قوله تعالى: " فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ " (الشعراء: 63)، فقال: "خرج فرعون في طلب موسى عليه السلام، وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمئة ألف سوى الجنبيين والقلب، فلما انتهى موسى إلى البحر، قال: ههنا أمرت، ثم قال موسى عليه السلام للبحر: انفرق فأبى، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق، فقال لهم موسى عليه السلام: ادخلوا فيه، فقالوا: كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا، فجفت، فقالوا: نخاف الغرق في بعضنا، فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضا، ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر، فأقبل فرعون إلى تلك الطرق، فقال قومه له: إن موسى قد سحر البحر، فصار كما ترى، وكان على فرس حصان، وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى، في ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فصار جبريل عليه السلام بين يدي فرعون، وأبصر الحصان الفرس... فاقتحم بفرعون على أثرها، وصاحت الملائكة في الناس، الحقوا الملك حتى إذا دخل آخرهم، وكاد أولهم أن يخرج، التقى البحر عليهم، فغرقوا فسمع بنو إسرائيل خفقة البحر عليهم، فقالوا: ما هذا يا موسى؟ قال: قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا إليهم، فقالوا: يا موسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر إليهم، فدعا فلفظهم البحر إلى الساحل وأصابوا من سلاحهم، وذكر ابن عباس أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو رأيته وأنا أدس فرعون في الماء والطين مخافة أن يتوب"¹، والرازي أنكر قول ابن عباس هذا، وقال: الأقرب أنه لا يصح؛ لأن فيه منعا من التوبة، والواجب أن يحثه على التوبة وعلى كل طاعة²، ولا يليق بالملائكة والأنبياء المنع من الإيمان³، ونجد اضطرابا في تبيان عدد جنود فرعون، فإن كان فيما سبق ذكره أنهم مليون ونصف المليون، نجده في موطن آخر يذكر أنهم ستمئة ألف من القبط، وينقل عن قتادة أنه اجتمع لفرعون ألف ألف ومئتا ألف نفس كل واحد على فرس

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 22، ص 94-95.

² ينظر: السابق، م 9، ج 17، ص 163.

³ السابق، م 11، ج 22، ص 95.

حصان¹، ويبين الرازي أن الغرض من ريح الصبا التي هبت على أرض البحر، بعد انفلاق الماء، تجفيفها إذ كانت موحلة، فجفت، وكل طريق فيه صار يابساً²، وقد انشق البحر اثني عشر جبلاً، في كل واحد طريق يربط بينها منافذ وكوى ليرى بعضهم بعضاً³، ومع أنهم خصوا بهذه البراهين الباهرة، فقد خالفوا موسى عليه السلام في أمور، حتى قالوا: "اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ" (الأعراف: 138)، وكذلك فرعون، على الرغم من رؤيته فلق البحر، بقي على الكفر لأن حب الشيء يعمي ويصم، فحبه للجاه والتلبس حمله على اقتحام تلك المهلكة⁴، ومع تقديره أن فرعون عاقل، بل كان في نهاية الدهاء، فكيف اختار إلقاء نفسه إلى التهلكة، ويعلم أن انفلاق البحر ليس بأمره؟ يجيب عن هذا التساؤل الوجيه، بوجهين: الأول ما ذكر آنفاً، من اقتحام حصان فرعون خلف فرس جبريل، والثاني، أن يقال: أمرَ مقدمة عسكره بالدخول، فدخلوا، وما غرقوا، فغلب على ظنه السلامة، فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى⁵.

لقد ورد في بردية مصرية تعود إلى حوالي عام 1550 ق.م. عمل سحر مشابه لهذا الحدث، "تحكي البردية ما ملخصه أن فرعون سنيفرو شعر في أحد الأيام باكتئاب، لم تنفع في إزالته كل ضروب اللهو المتوفرة في القصر الملكي، فدعا إليه كاهنا حكيمًا معروفًا بقدراته السحرية، واستشاره فيما يزيل عنه اكتئابه، فأشار الكاهن برحلة نهريّة في القارب الملكي، تتخللها ضروب اللهو والتسليّة، ثم أشرف بنفسه على ترتيب الرحلة، وكان من جملة ما أعدّه الكاهن لهذه النزهة عشرين فتاة في ريعان الصبا، لبسن أبهى حلة، وتزين بأحلى زينة، ورحن يجذفن المركب الملكي، وينشدن أعذب الألحان، فطرب الفرعون، وزال عن قلبه الغم، ولكن إحدى الفتيات أسقطت إلى الماء سهواً مشبك شعرها التركوازي العزيز عليها، فحزنت وتوقفت عن التجذيف والغناء، وتوقفت معها أيضاً صويحاتها، وهنا توجه الفرعون إلى

¹ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م2، ج3، ص76.

² ينظر: السابق، م2، ج3، ص76.

³ السابق، م2، ج3، ص76.

⁴ ينظر: السابق، م2، ج3، ص77-78.

⁵ ينظر: السابق، م11، ج22، 95.

الكاهن ليجد حلاً للمسألة، ويعيد الفرح لقلوب الفتيات، فوقف الكهان عند حافة القارب، وتلفظ ببعض أسماء القوة، فانشق الماء، وانزاح نصفه متراكباً فوق النصف الآخر، فظهرت الحلية التي تم التقاطها، وإعادتها إلى الفتاة، ثم نطق ثانياً بأسماء القوة فعاد الماء سيرته الأولى¹.

ومثل هذه الواقعة، نجد كرامة لصوفي اضطر للسفر على ظهر سفينة، فمات، ولكي يدفن هذا الرجل الصالح، انشق البحر، وظهرت اليابسة². وفي زمن الاسكندر حدث ما يشبه انشقاق البحر، وفُسر حينذاك على أنه معجزة، فقد "رأى جنود الاسكندر، ملك مقدونيا، بحر بامفيليا يتراجع أمامهم، وأصبح لهم طريقاً بعد أن ضلوا كل طريق، وذلك عندما أراد الله أن يقضي على قوة الفرس، هذا ما يتفق عليه تماماً جميع رواة أخبار الاسكندر"³.

وفي سياق فهم هذا الحدث يقول جفري آش في عبور الإسرائيليين البحر على الأقدام: "عندما لا يمكن أن ينشق البحر الأحمر لهم دون معجزة حقيقية وكبيرة، فإن وجوده من المحتمل أن يكون خطأ جغرافياً، لقد عبروا بحر القصب أو بحيرة البردي، وقد غيرت قناة السويس هذا الوضع، ولكن قبل حفر القناة كان الماء فيها ضحلاً جداً، وفي أوقات معينة من انخفاض الماء استطاع الفارون أن يسيروا عبره، وكان من الممكن لتغير فجائي في الريح، ومستوى الماء أن يردع المراكب المصرية التي تطاردهم، وكان هذا الإنقاذ بالنسبة إلى عقيدة إسرائيل أكثر من كاف لكي تنمو حوله"⁴، فالرواية على طبيعتها لا تحرك ساكناً عند العامة، في حين أن الأثر يعظم عندما يوصف ما حدث بأسلوب شاعري⁵، وانشقاق البحر بمعنى ارتفاعه مثل جدار على كل جانب وغرق المطاردين بعودة البحر إلى ما كان عليه، هو تخيل بقصد تضخيم الحادثة، وتأكيد أن يد الرب فيها⁶، وانحسار الماء انحساراً طبيعياً، ليس المسألة

¹ السواح، فراس: دين الإنسان، ط4، دار علاء الدين، دمشق، 2002م، ص195.

² ينظر: زيعور: الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص135.

³ إسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي، ط1، دار التنوير، بيروت، 2005م، ص231.

⁴ جفري: المعجزات، ص49.

⁵ ينظر: إسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص225.

⁶ ينظر: جفري: المعجزات، ص50.

المهمة، وإنما انحساره في اللحظة التي أرادوا أن يعبروا، وأنهم حضروا إلى هناك في الوقت الذي كان موشكا أن ينحسر، هذا التوقيت من عمل الرب¹.

صوّر سفر الخروج عبور البحر، كما يأتي: " فقال الرب لموسى: مالك تصرخ إلي؟ قل لبني إسرائيل أن يرحلوا. وارفع أنت عصاك، ومد يدك على البحر وشقه. فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة. وها أنا أشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم. فأتجد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه. فيعرف المصريون أنني أنا الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه. فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل، وسار وراءهم. وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم. فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل وصار السحاب والظلام، وأضاء الليل. فلم يقترب هذا إلى ذاك كل الليل. ومد موسى يده على البحر. فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة، وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم. جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر. وكان في هزيع الصباح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب، وأزعج عسكر المصريين. وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقله. فقال المصريون نهروا من إسرائيل. لأنّ الرب يقاتل المصريين عنهم. فقال الرب لموسى مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصباح إلى حاله الدائمة، والمصريون هاربون إلى لقاءه. فدفع الرب المصريين في وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم².

¹ ينظر: جفري: المعجزات، ص54.

² الخروج 14: 15-29.

النار التي لا تحرق

نقل الرازي كيفية تحريق إبراهيم عليه السلام بالنار، فقال: "لما اجتمع نمرود وقومه لإحراق إبراهيم حبسوه في بيت، وبنوا بنيانا كال حظيرة، وذلك قوله: "قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ" (الصفافات: 97)، ثم جمعوا له الحطب الكثير، حتى أن المرأة لو مرضت، قالت: إن عافاني الله لأجعلن حطبا لإبراهيم، ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوما، فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصى الهواء لاحترق، ثم أخذوا إبراهيم عليه السلام، ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه، ثم اتخذوا منجنيقا، ووضعوه فيه مقيدا مغلولا، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة إلا الثقلين صيحة واحدة، أي ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم، وإنه يحرق فيك، فأذن لنا في نصرته، فقال سبحانه: إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه، وإن لم يدع غيري، فأنا أعلم به، وأنا وليه، فخلوا بيني وبينه، فلما أرادوا اللقاء في النار، أناه خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء، فقال إبراهيم عليه السلام: لا حاجة بي إليكم، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، أنت حسبنا ونعم الوكيل.

وقيل: إنه حين ألقى في النار، قال: لا إله إلا أنت سبحانه رب العالمين، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك، ثم وضعوه في المنجنيق، ورموا به النار، فأتاه جبريل عليه السلام، وقال: يا إبراهيم هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال: فاسأل ربك، قال: حسبي من سؤالي، علمه بحالي. فقال الله تعالى: "يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ" (الأنبياء: 69)، وقال السدي: إنما قال ذلك جبريل عليه السلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية مجاهد: ولو لم يتبع بردا سلاما لمات إبراهيم من بردها، قال: ولم يبق يومئذ في الدنيا نار إلا طفئت، ثم قال السدي: فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم، وأقعدوه في الأرض، فإذا عين ماء عذب، وورد أحمر، ونرجس، ولم تحرق النار منه إلا وثاقه.

وقال المنهال بن عمرو: أخبرت أن إبراهيم عليه السلام لما ألقى في النار كان فيها إما أربعين يوما أو خمسين يوما، وقال: ما كنت أيما أطيب عيشا مني إذ كنت فيها، وقال ابن إسحاق: بعث الله ملك الظل

في صورة إبراهيم، ففقد إلى جنب إبراهيم يؤنسه، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة، وقال: يا إبراهيم إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي، ثم نظر نمرود من صرح له، وأشرف على إبراهيم، فرآه جالساً في روضة، ورأى الملك قاعداً إلى جنبه، وما حوله نار تحرق الحطب، فناداه نمرود: يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: قم فخرج، فقام يمشي حتى خرج منها، فلما خرج قال له نمرود: من الرجل الذي رأيته معك في صورتك؟ قال: ذاك ملك الظل أرسله ربي ليؤنسي فيها، فقال نمرود: إني مقرب إلى ربك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك، فإني ذابح له أربعة آلاف بقرة، فقال إبراهيم عليه السلام: لا يقبل الله منك ما دمت على دينك، فقال نمرود: لا أستطيع ترك ملكي، ولكن سوف أذبحها له، ثم ذبحها له، وكف عن إبراهيم عليه السلام.

ورويت هذه القصة على وجه آخر، وهي أنهم بنوا لإبراهيم بنيانا وألقوه فيه، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام، ثم أطبقوا عليه، ثم فتحوا عليه من الغد، فإذا هو غير محترق يعرق عرقاً، فقال لهم هاران أبو لوط: إن النار لا تحرقه لأنه سحر النار، ولكن اجعلوه على شيء وأوقدوا تحته، فإن الدخان يقتله، فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته، فطار شرارة فوقت في لحية أبي لوط فأحرقته¹.

ثم يشرع الرازي بالانتصار لما في هذه القصة من إضافات، فيقول راداً على تساؤل: "أفيجوز ما قيل من أنه كان في النار أنعم عيشاً منه في سائر أحواله؟ والجواب: لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها، ويجوز أن يكون إنما صار أنعم عيشاً هناك؛ لعظم ما ناله من السرور، بخلاصه من ذلك الأمر العظيم، ولعظم سروره بظفره بأعدائه، وبما أظهره من دين الله تعالى².

وبعلل الرازي برودة النار، فيقول: "اختلفوا في أن النار كيف بردت؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والإحراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق، والله على كل شيء قدير. وثانيها: أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه، كما يفعل

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 22، ص 188-189.

² السابق، م 11، ج 22، ص 190-191.

بخرنة جهنم في الآخرة، وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديد المحماة، وبدن السمندل؛ بحيث لا يضره المكث في النار. وثالثها: أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه، قال المحققون: والأول أولى؛ لأن ظاهر قوله: "يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا" (الأنبياء: 69)، أن النار نفسها صارت باردة، حتى سلم إبراهيم من تأثيرها، لا أن النار بقيت كما كانت، فإن قيل: النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة، فإذا كانت الحرارة جزءا من مسمى النار امتنع كون النار باردة، فإذا وجب أن يقال: المراد من النار الجسم الذي هو أحد أجزاء مسمى النار، وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين؟ قلنا: المجاز الذي ذكرناه يبقى معه حصول البرد، وفي المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك فكان مجازنا أولى¹.

ويذكر الرازي إنكار بعضهم لهذا التصور، دون أن يقدم لنا رأيهم في تفسير الآيات، فيقول: "أنكر بعض الأطباء الكل، أما سلب الحرارة عن النار، قالوا: الحرارة في النار ذاتية كالزوجية في الأربعة لا يمكن أن تفارقها، وأما خلق كيفية تستبرد النار فلأن المزاج الإنساني له طرفا تقريط وإفراط، فلو خرج عنهما لا يبقى إنسانا أو لا يعيش. مثلا المزاج إن كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون إنسانا فإن صار أحد عشر لا يكون إنسانا وإن صارت الأجزاء الباردة خمسة يبقى إنسانا فإذا صارت أربعة لا يبقى إنسانا لكن البرودة التي يستبرد معها النار مزاج السمندل، فلو حصل في الإنسان لمات، أو لكان ذلك فإن النفس تابعة للمزاج، وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة في النار والنار كما هي، والقطنة كما هي، ولا تحترق، فنقول: الآية رد عليهم والعقل موافق للنقل"².

وعندما يفسر قوله تعالى: "فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ" (العنكبوت: 24)، حيث كان موقف قوم إبراهيم إزاءه؛ إما القتل وإما التحريق، وقد

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 22، ص 190.

² السابق، م 13، ج 25، ص 53.

اختاروا التحريق، بما يوحي بتباين الأمرين وانفكاكهما، قال الرازي: "اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه"¹.

إن الاعتقاد بسلب النار خاصية الإحراق، نجده في قابليات الذهن الأسطوري، ففي المعتقدات المصرية القديمة، تعمل إيزيس ممرضة وحامية لطفل مولود حديثاً، و"تقرر أن تمنحه الخلود بوساطة وضعه في موقد النار؛ لكي يحترق جسده الفاني، وكإلهة تستطيع أن تحمي هذا الجسد فلا تسمح للنار بقتله، وفي كل مساء، وبينما يكون الطفل في النار، تحول نفسها إلى سنونو، وتبدأ تحوم حول العمود الذي حُبس فيه زوجها، في إحدى الأمسيات تدخل أم الطفل إلى الغرفة... فتري طفلها في موقد النار... ويتم إنقاذ الطفل من الحرق"²، وفي أسطورة إغريقية مشابهة، خطر لديمتر في الليل "أن تخلع على الطفل نعمة الخلود، فأخذت تدهنه بالخمير الإلهي، وراحت تتمتع عزيمة من العزائم القوية، ووضعت على الجمر المتوهج، حتى تأكل النار كل الفانية الباقية في جسده، وفي هذا الوقت كانت الملكة قد فكرت أن من الحمق، أن تترك طفلها مع امرأة غريبة، فتسللت إلى الجناح الذي تقيم فيه المرأة، وصاحت الملكة صياحا وحشياً وهي تهجم على الطفل، وتحطفه من بين أسنة اللهب، وضمت بهشوق إلى صدرها، ولما استيقنت أنه لم يصب بأذى، التفتت لتصب نغمتها على المربية المهمة"³، وفي أسطورة أخرى فوق جبل الأولمب اضطلع هرقل على جلد أسد، فوق كومة من الحطب، وقد طلب من رفيقه فيلوكتيتيس أن يضع شعلاً في أسفل الكوم، فما لبث أن اندلعت أسنة اللهب حوله، ولما خمد اللهب، لم يستطع أصدقاء البطل أن يجدوا أثراً لجسده، حتى ولا حفنة من رماد، لقد أخذ إلى الأعلى"⁴، وفي أسطورة هندية تحاكي قصة إبراهيم والنار، مفادها أن هارون كشب، ملك ديتون، قد ادعى الألوهية، وحدث أن ابنه براهلا، المنفق في نصفه الأول مع اسم إبراهيم، قد أنكر ألوهية والده، وادعاه لنفسه، فأراد أن يقتل

¹ الرازي: التفسير الكبير، م13، ج25، ص53.

² كامبل، جوزف: قوة الأسطورة، ط1، ترجمة: حسن صقر وزميله، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، 1999م، ص254.

³ غريبر: أساطير الإغريق والرومان، ترجمة: حسني فريز، دائرة الثقافة والفنون، عمان، 1976م، ص122-123.

⁴ ينظر: السابق، ص154.

ابنه، بحيل كثيرة، منها أنه ألقاه في النار، ولكن الإله فيشنو حفظه في جميع هذه المحن، حتى خرج سالما منها¹.

أما العهد القديم فقد أورد قصة مشابهة لمعجزة إبراهيم عليه السلام، تتمثل في أصحاب دانيال الثلاثة الذين رفضوا "عبادة التمثال الذهبي الذي أمر الملك (نبوخذنصر) كل أتباعه بعبادته، أن يلقي بهم في أتون نار متقدة، ويصرهم الملك يقفون وسط النار لا يصيبهم أذى، يرافقهم شخص رابع، يصفه الملك بأنه أشبه بابن الآلهة"²، "حينئذ امتلأ نبوخذنصر غيظا وتغير منظر وجهه على شدرخ وميشخ وعبدنغو، فأجاب وأمر بأن يحمو الأتون سبعة أضعاف أكثر مما كان معتادا أن يحمى. وأمر جبابرة القوة في جيشه بأن يوثقوا شدرخ وميشخ وعبدنغو ويلقوهم في أتون النار المتقدة. ثم أوثق هؤلاء الرجال في سراويلهم وأقمصتهم وأرديتهم ولباسهم، وألقوا في وسط أتون النار المتقدة. ومن حيث إن كلمة الملك شديدة، والأتون قد حمي جدا، قتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ وميشخ وعبدنغو. وهؤلاء الثلاثة الرجال، شدرخ وميشخ وعبدنغو، سقطوا موتقين في وسط أتون النار المتقدة. فكانوا يتمشون في وسط اللهب مسبحين الله ومباركين الرب، ووقف عزريا وصلى هكذا، وفتح فاه في وسط النار، وقال: مبارك أنت أيها الرب إله آبائنا، حميد، واسمك مجد إلى الدهور. لأنك عادل في جميع ما صنعت، وأعمالك كلها صدق وطرقك استقامة، وجميع أحكامك حق... ولم يزل خدام الملك الذين ألقوهم، يوقدون الأتون بالنفط والزفت والمشاقة والزرجون. فارتفع اللهب فوق الأتون تسعا وأربعين ذراعا، وانتشر وأحرق الذين صادفهم حول الأتون من الكلدانيين. أما أصحاب عزريا فنزل ملاك الرب إلى داخل الأتون وطرد لهيب النار عن الأتون، وجعل وسط الأتون ريحا ذات ندى تهب فلم تمسهم النار البتة، ولم تسؤهم ولم تزعجهم. حينئذ سبح الثلاثة بقم واحد ومجدوا وباركوا الله في الأتون... حينئذ تحير نبوخذنصر الملك، وقام مسرعا، فأجاب، وقال لمشيريه: ألم نلق ثلاثة رجال موتقين في وسط النار؟

¹ ينظر: العجمي، فالح: صحف إبراهيم جنود البراهمية من خلال نصوص الفيدا، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006م، ص53.

² هووك: منعطف المخيلة البشرية، ص133.

فأجابوا، وقالوا للملك: صحيح أيها الملك. أجاب، وقال: ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار، وما بهم ضرر، ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة. ثم اقترب نبوخذنصر إلى باب أتون النار المتقدة، وأجاب، فقال: يا شدرخ وميشخ وعبدنغو، يا عبيد الله العلي، اخرجوا وتعالوا. فخرج شدرخ وميشخ وعبدنغو من وسط النار. فاجتمعت المرازبة والشحن والولة ومشيرو الملك، ورأوا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنار قوة على أجسامهم، وشعرة من رؤوسهم لم تحترق، وسراويلهم لم تتغير، ورائحة النار لم تأت عليهم¹.

ولكن في الكتب اليهودية التلمودية، نجد أصل القصة في المدياش رباء، وبعد حوار مع تارح الذي كان يصنع الأصنام، ومن ثم تسليم إبراهيم الساخر منها إلى نمرود، تنتهي القصة بقول النمرود: "فأنا لا أعبد إلا النار، وها أنا ألقيك في وسطها، وليأت الله الذي تعبد به وينقذك منها، ونزل إبراهيم في أتون النار ونجا"².

ومثل ذلك يتفق مع ما يروى عن الشامانات الذين يُرمون في النار، ثم يخرجون منها دون أن يمسمهم أذى³، ومنهم من يمشي على فراش من الجمر، ومن يمشي على النار⁴، كذلك يتشابه في سلب النار خاصية الحرق، مع ما ينسب للأولياء، فأحدهم أدخل يده في كور نار عظيم محمى، فيه حديدة عظيمة، فأخذها وأخرجها وبردت في يده⁵، وآخر يُدخل الحمل المذبوح أو عظمه في أتون، ثم يخرجها منه حملاً حياً⁶.

وكان الناس قديماً يعزون عصمة الكهان أو الشامانات أو الأولياء من أذى أتون النار إلى إلهام الآلهة لهم، ولذلك نجد الفيلسوف السوري يميلخيوس حين بحث في طبيعة الإلهام الإلهي، يذكر أن من

¹ دانيال 3: 19-28.

² ينظر: تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص 65-66.

³ ينظر: ألبيدل: سحر الأساطير، ص 131.

⁴ ينظر: الوردي، علي: خوارق اللاشعور، ط2، الوراق للنشر، لندن، 1996م، ص 183-184.

⁵ ينظر: زيعور، علي: الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1984م، ص 201.

⁶ السابق، ص 202.

عوارض هذا الإلهام عدم شعور صاحبه بالألم مطلقاً، فيقول: إن الكثيرين من الملهمين، لا يحترقون بالنار، إذ لا تصيبهم ألسنة اللهب بسبب ما بهم من الإلهام الإلهي، ومن امتلاً بالروح يقتحم النار، ويمشي خلال اللهب، ويمثل على ذلك بكاهنة كستبالا، وكذلك كاهنات بيراسيا حين يمشين في أتون النار¹.

ويعتقد هنود (كونا) أن من يعرف سر الشيء أو أصله، يكتسب قدرة سحرية، ويستطيع السيطرة عليه، فمن عرف أصل النار يقبض على الجمر، ويزعمون أن فتى عمره أربعة عشر عاماً، يدخل النار وحيداً فلا يحترق، لأنه عرف سر النار²، والقديس رومانوس الشاب رُمي به في النار وبادر يهود حضروا المشهد إلى توجيه الشتائم إلى يسوع المسيح لأنه سمح بإحراق أحد أتباعه، وما أن تفوه اليهود بالشتائم حتى خرج القديس رومانوس مظفراً من المحرقة³، ولا غرو أن ارتبطت النار بالآلهة في المرويات، فتحرق أو تتوقف عن الحرق تبعاً لإثبات الداخل فيها قدرة إلهه، وصحة معتقده، وصدق دعواه، فقد كانت في الديانات القديمة مقدسة ومعظمة ومعبودة، والتقرب منها تقرب من الإله⁴.

وبعد موت النبي الكريم يروي الذهبي حادثة لأبي مسلم الخولاني، تحاكي معجزة إبراهيم عليه السلام، فيقول: "أتى أبو مسلم الخولاني المدينة، وقد قبض النبي، واستخلف أبو بكر، فحدثنا شرحبيل أن الأسود تنبأ باليمن، فبعث إلى أبي مسلم، فأثناء بنار عظيمة، ثم إنه ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضره، فقليل للأسود: إن لم تتف هذا عنك، أفسد عليك من اتبعك، فأمره بالرحيل، فقدم المدينة، فأناخ راحلته، ودخل المسجد يصلي، فبصر به عمر رضي الله عنه، فقام إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال: من اليمن، قال: ما فعل الذي حرقه الكذاب بالنار، قال: ذاك عبد الله بن ثوب، قال: نشدتك بالله، أنت هو؟ قال: اللهم نعم، فاعتنقه

¹ ينظر: فريزر، جيمس: أدونيس أو تموز دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة، ط2، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979م، ص123-124.

² ينظر: إلياد، مرسيا: مظاهر الأسطورة، ط1، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، 1991م، ص18.

³ ينظر: فولتير: رسالة في التسامح، ترجمة: هنرييت عبودي، ط1، دار بتر، دمشق، 2009م، ص78.

⁴ ينظر: السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص390.

عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصديق، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد من صنع به كما صنع بإبراهيم الخليل¹، ويروى في كرامات الأولياء من هذا القبيل عن إبراهيم الآجر، أن يهوديا قال له: "يا إبراهيم، أرني آية أسلم عليها، فقلت له: تفعل؟ قال: نعم، فقلت: انزع ثوبك، فلففته ولففت على ثوبه ثوبي، وطرحته في النار، ثم دخلت الأتون، وأخرجت الثوب من وسط النار، وخرجت من الباب الآخر، فإذا ثيابي بحالها لم يصبها شيء، وثيابه في وسطها صارت حراقة، فأسلم اليهودي²، فنجاة الصوفي من النار بمثابة ولادة جديدة في الإيمان وانبعاث قوي لحياة النفس³.

ريح سليمان

فسر الرازي قوله تعالى: "وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ" (الأنبياء: 81، سبأ: 12)، بأن الله جعلها طائفة منقادة له، بمعنى إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها لينة كانت لينة، والله تعالى، سخرها في الحالتين، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به مدة يسيرة، على ما قال: "غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ" (سبأ: 12)، طائفة لسليمان على حسب ما يريد ويحكم، وينقل عن الكلبي: كانت تسير من اصطخر إلى الشام بركب عليها سليمان وأصحابه⁴، وهذه الريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها هو وجنوده⁵، وكون الريح جارية بأمره وفق قصده وإرادته، قدرة عجيبة وملك عجيب⁶، ومع ما ذهب إليه الرازي في تفسيره، اتفق مع المأثور في تأويل ريح سليمان، ولكنه لم يذكر تفاصيل حمل الريح له، مع توافرها في التفسير المأثور، حيث كان لسليمان "بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه، وتسير به،

¹ الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، ط11، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومأمون الصاغري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م، ج4، ص8-9.

² النبهاني، يوسف بن إسماعيل: جامع كرامات الأولياء، ط3، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، 1984م، ج1، ص392.

³ ينظر: زيعور: الكرامة الصوفية، ص202.

⁴ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م11 — ج22، ص202.

⁵ السابق، م13، ج25، ص348.

⁶ السابق، م13، ج26، ص210، ص211.

وتظله الطير من الحر، إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه... قال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة، عن أبي سنان، عن سعيد بن جبير، قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي، فيجلس ممّا يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلمهم، ثم يأمر الريح فتحمله عليه الصلاة والسلام، وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم، كالجبل، ثم يأمر بفراشه، فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة، فترتفع حتى تصعد على فراشه، ثم يأمر الريح، فترتفع به كل شرف دون السماء¹، وقال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق، فينزل باصطخر يتغذى بها، ويذهب رائحا من اصطخر، فيبيت بكابل، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرّع، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرّع².

إن فكرة انتقال سليمان في الهواء، لها أصل في الترجمان الثاني عن استير، الذي نشر في رباني الكتاب المقدس³، "إذ يذكر الترجمان أن صاحب العرش، هو سليمان، وأن أربعة وعشرين نسرا، كانت فوق هذا العرش، تلقي، بظلالها على رأس الملك، ومتى أراد سليمان التوجه إلى مكان ما كانت هذه النسور تنقل له عرشه، وتحمله إلى حيث أراد"⁴، وفكرة الطيران بوساطة النسور، والسفر جوا، ظهرت في أسطورة آشورية مع أحيقار، فبعدما سمح له الملك بالذهاب إلى مصر، وأخذ معه فرقة من الجنود، يقول: "عند حلول استراحة المساء، بدأت بصرف الجنود، ثم أخرجت النسرين الفرخين، وربطت الحبل برجل كل منهما، وجعلت ابني يركبان عليهما، وأفلتهما فصعدا عاليا في الهواء"⁵، وفي أسطورة أدابا، يمثل الطير شوتو آلهة الرياح، وهو على شكل طائر كبير، وعلى الرغم من كسر أدابا لجناحيه صعد أدابا إلى

¹ ابن كثير، إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ط2، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، 2010م، ج3، ص326.

² السابق، ج3، ص827.

³ ينظر: تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص71.

⁴ السابق، ص73.

⁵ الشواف: ديوان الأساطير، ج3، ص396.

السماء، ولا ندري بأية وسيلة¹، وفي كنزربا الكتاب المقدس للصابئة المندائية يتحدث بتكرار عن انتقال دنانوخت بالرياح، "رياح رياح أخذت دنانوخت، وطوحت به العواصف، سلاام سلاام رفعته، حتى بلغ محطة بئاهيل ناقض الضياء، المقطوع عن النور"².

وقد كان هذا التحليق في الهواء والطيران يراود رغبة الإنسان منذ القديم³، ويظهر عبر الأساطير، فهذا بيتاجوراس يستوحي الأسرار، فيقول: "سأفتح أمام عيونكم منافذ السماوات، وأكشفكم برسائل الحكمة العليا، وأبثكم الأسرار العميقة التي لم تستطع عبقرية بشر بلوغها، فظلت خفية عليهم، وكم أود أن أخلق في الآفاق بين الكواكب والنجوم، تاركا هذه الأرض التي تُقعد الهمم، معتليا السحاب حتى أهبط على كتفي أطلس الجبار، وأطلع ببصري إلى البشر عن بعد وهم يهيمنون على وجوههم على غير هدى"⁴، وصارت الأمنية واقعا في الروايات فهذا شيخ "من الريشي المسمى آديتا، طار عبر الهواء بدءا من الهملايا حتى كابيلافاستو، وطلب رؤية الوليد الجديد، وأخذه بين ذراعيه، وعارفا أنه سيصبح البوذا، أخذ يبيكي، وذلك لعلمه أنه لن يعيش ليلحق به"⁵، والارتفاع والتحليق في الهواء يزعمها القديسون والقديسات في العالم المسيحي، مثل توما الأكويني وجوزيف، والقديسة تيريزا وصديقها يوحنا الصليب، واليوغيون الهنود، مع الفرق بأن القديسين يرتفعون بتغير سماوي مفاجئ دون جهد منهم⁶، ومثل القديسين زعم الأولياء من المسلمين⁷، وكثرة الادعاء في الأمر، روي عن الشافعي فيما قاله "ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: سمعت يونس بن عبد الأعلى، قال: قلت للشافعي: تروي، يا أبا عبد الله، ما كان يقول فيه صاحبنا؟ -أريد اللبث أو غيره- كان يقول: لو رأيته يمشي على الماء، يعني صاحب الكلام، لا تثق به أو لا تغتر به، ولا تكلمه. قال الشافعي: فإنه، والله، قد قصر، إن رأيته يمشي في الهواء فلا

¹ ينظر: فيروللو، شارل: أساطير بابل وكنعان، ترجمة: ماجد خيربك، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، 1990م، ص29.

² كنزاربا اليمين، ص164-165.

³ ينظر: عبد الحكيم، شوقي: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت. ص28.

⁴ أوفيد: مسخ الكائنات، ص318.

⁵ إلياد، ميرسيا: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ط1، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، 1987م، ج2، ص79.

⁶ ينظر: آش: المعجزات، ص79-83.

⁷ ينظر: النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ج2، ص134.

تركن إليه"¹، ومن الأمور التي طلبها اليهود من المسيح عليه السلام أن يحول الحجارة إلى خبز، وعليه أن يلقي نفسه من سطح هيكل أورشليم، مثبتاً من هو ببقائه في الهواء، ولكن المسيح يسوع رفض كلا المقترحين²، وهذا المقترح من بقاءه في الهواء، يتقاطع مع مقترح كفار قريش في أن يرقى النبي محمد في السماء، وكذلك قبول بالرفض من الله سبحانه، فقال تعالى: "أَوْ تَرَقَّىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا" (الإسراء: 93).

نقل عرش بلقيس

يرى الرازي "أن الذي عنده علم من الكتاب، أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر"³، بدليل قوله تعالى: "قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ" (النمل: 40)، وأن العرش هو سرير المملكة⁴، والمقصود بمن عنده علم من الكتاب، على اختلاف أنه كان من الملائكة، أو من الإنس، بين جبريل أو ملك من الملائكة، أو الخضر، أو آصف بن برخيا وزير سليمان، ويعلم الاسم الأعظم الذي إذا دعا به أجيب، أو رجل صالح من جزيرة في البحر، يعلم الاسم الأعظم، أو سليمان نفسه، وهو ما رجحه الرازي وأوجب الانصراف إليه باعتبار أن سليمان نبي، وهو أعرف من غيره بالكتاب، وإحضار آصف للعرش يفضي لتفضيله على سليمان، وهو قصور في عين الخلق، وقول سليمان: "هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ"⁵، ظاهره المعجز، قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان⁶.

¹ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن: آداب الشافعي ومناقبه، ط1، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص141.

² آش: المعجزات، ص63.

³ الرازي: التفسير الكبير، م10، ج20، ص151.

⁴ ينظر: السابق، م12، ج24، ص198.

⁵ سورة النمل، الآية: 40.

⁶ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م12، ج24، ص198-199.

وعرض الرازي لدلالة السرعة في النقل على وجهين: الأول أنه أراد المبالغة في السرعة، كما تقول لصاحبك: افعَلْ ذلك في لحظة، وهو قول مجاهد، والثاني، أن نجريه على ظاهره وقد ثبت عقلا إمكان وجود هذه الحركة السريعة، وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات¹.

وعرض اختلاف الرأي في دلالة غرض سليمان من إحضار عرش بلقيس أو سرير المملكة، بين أنه دلالة على قدرة الله ونبوة سليمان، أو أراد اختبار عقلها، من خلال أن يغير وينكر في عرشها، ثم يختبرها ليرى هل تعرفه أم تنكره، أو أن يأخذ ويغنمه قبل إسلامها، فإذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها، أو أن يعرف من خلال سريرها مقدار مملكتها قبل وصولها إليه²، ويزيد الرازي تعليل تتكبر عرشها فيقول: لو ترك على ما كان لعرفته لا محالة، وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها، وإذا غير دلت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقلها، ولا يمتنع صحة ما قيل: إن سليمان عليه السلام، ألقى إليه أن فيها نقصان عقل لكي لا يتزوجها، أو تحظى عنده على وجه الحسد، فأراد بما ذكرنا اختبار عقلها³، خاصة وقد "زعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها، فتفضي إليه بأسرارهم؛ لأنها كانت بنت جنية، وقيل: خافوا أن يولد منها ولد، فيجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد، فقالوا: إن في عقلها نقصانا، إنها شعراء الساقين، ورجلها كحافر حمار، فاختبر سليمان عقلها بتتكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها... وقال آخرون: كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه، وحصل كشف الساق، على سبيل التبع، فلما قيل لها: هو صرح ممرد من قوارير، استترت وعجبت من ذلك، واستدلت به على التوحيد والنبوة"⁴.

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 12، ج 24، ص 199.

² السابق، م 12، ج 24، ص 198.

³ السابق، م 12، ج 22، ص 200.

⁴ السابق، م 12، ج 22، ص 202.

وإذ اكتفى الرازي بالإشارة لنقل العرش بطريقة عجائبية دون تفصيل للكيفية، فقد ذكر المفسرون تلك الكيفية، كمجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن اسحاق وزهير بن محمد وغيرهم، من أنه غاب السرير، وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يدي سليمان¹.

وفق الكتاب المقدس أتت ملكة سبأ لتمتحن سليمان بمسائل، في سرد يخلو من العجائب التي ظهرت في الترجوم غير المعترف به رسمياً، ففي سفر ملوك الأول: سمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب، فأنت لمتحنه بمسائل. فأنت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً، بجمال حاملة أطيابا وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة. وأنت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها، فأخبرها سليمان بكل كلامها. لم يكن أمر مخفياً عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان، والبيت الذي بناه (إشارة للصرح)، وطعام مائدته، ومجلس عبيده، وموقف خدامه وملابسهم، وسفاته، ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب، لم يبق فيها روح بعد، فقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عينا، فهذا النصف لم أخبر به. زدت حكمة وصلاً على الخبر الذي سمعته، طوبى لرجالك، وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً السامعين حكمتك. ليكن مباركا الرب إلهك الذي سر بك وجعلك على كرسي إسرائيل. لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكاً، لتجري حكماً وبرا. وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة. لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة، الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان²، ويبين الكتاب المقدس أن زيارات سليمان من ملوك الأرض كانت بسبب سماعهم عن عظم عرشه وقوته: "فتعظم الملك سليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والحكمة. وكانت كل الأرض ملتزمة وجه سليمان لتسمع حكمته التي جعلها الله في قلبه. وكانوا يأتون كل واحد بهديته، بآنية فضة وآنية ذهب وحلل وسلاح وأطياب وخيل وبغال سنة فسنة"³، وعرض النص لوصف عظمة كرسي سليمان أو

¹ ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص587.

² سفر ملوك الأول 10: 1-10. سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح9.

³ سفر ملوك الأول 10: 23-25.

عرشه الذي يجلس عليه، ولا نظير له في الممالك: "وعمل الملك كرسيا عظيما من عاج وغشاه بذهب إبريز، وللكرسي ست درجات، وللكرسي رأس مستدير من ورائه، ويدان من هنا ومن هناك على مكان الجلوس، وأسدان واقفان بجانب اليدين، واثنان عشر أسدا واقفة هناك على الدرجات الست من هنا ومن هناك. لم يعمل مثله في جميع الممالك"¹.

وأما في الترجوم فنجد بعض مقاطع القصة التي ترد في التفسير، وفيه: لما رأت ملكة سبأ أن الملك جالس في بيت بلوري (إشارة إلى ممرد من قوارير) توهمت في قلبها، قائلة: إن الملك جالس في الماء، فرفعت ثوبها لتعبر، فرأى أن لها شعرا على الساقين، فقال لها: إن جمالك هو جمال النساء، وشعرك هو شعر الرجال، فالشعر حلية الرجل، ولكنه يعيب المرأة، فقالت: يا مولاي الملك... يتبارك الرب إلهك الذي سر بك، وأجلسك على عرش المملكة لتجري قضاء عادلا"².

ورأى "بعض نقاد التوراة أن هذه القصة قد كتبها أولئك الكتبة لإثبات عظمة سليمان، وسعة دولته، وشهرة حكمته، غير أن هذا لم يثبت به، حتى الآن، ورأى آخرون أن هذه الملكة لم تكن ملكة سبأ في اليمن، لعدم ورود أسماء ملكات في النصوص العربية الجنوبية، بل كانت ملكة تحكم في العربية الشمالية، تحكم جماعة من السبئيين الذين كانوا قد نزحوا إلى هذه المناطق منذ عهد بعيد، وكونوا مستوطنات سبئية في الأردن، وفي أعالي الحجاز"³، ويؤيد هذا الرأي كون الدولة السبئية التي ظهرت في اليمن تبدأ بسنة 650 قبل الميلاد وتستمر إلى سنة 109 ق.م. في أحسن الأحوال⁴، في حين عهد سليمان مع هذه الحادثة كان حوالي السنة 950 قبل الميلاد، وحكم بين 963 ق.م. إلى 923 ق.م.⁵

¹ سفر ملوك الأول 10: 18-20.

² تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص 76.

³ علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م، ج 1، ص 636. وينظر: ج 2، ص 259.

⁴ ينظر: السابق، ج 2، ص 315-316.

⁵ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 2، ص 264. ينظر: محاسنة، محمد، محمد الطراونة، محمود الرويضي، محمد العميرة: تاريخ مدينة القدس، ط 1، مكتبة الفلاح، الكويت، 2003م، ص 71.

بمعنى يفصله عن الدول السبئية اليمنية زهاء ثلاثة قرون، ويرى بعض الباحثين أن السبئيين هم من أهل العربية الشمالية في الأصل، غير أنهم تركوا مواطنهم هذه، وارتحلوا في القرن الثامن قبل الميلاد، أو القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى جنوب الجزيرة العربية¹.

ونسج المخيال أسطورة تناظر نقل عرش بلقيس، حيث إن المسكن الفعلي لمريم العذراء في الناصرة تم نقله من منطقة الجليل، بعمل الله ذاته، إلى إيطاليا سنة 1291م، وقد غادر أسسه وطار عبر الفضاء، على ثلاث مراحل، كانت محطات توقف له قبل الوصول للمرحلة الأخيرة².

وفي محاولة لفهم قصة نقل العرش بعيدا عن العجائبية، قال ابن عاشور: "يحتمل أن يكون سليمان قال ذلك بعد أن حطت رحال الملكة في مدينة أورشليم، وقبل أن تنتهيًا للدخول على الملك، أو حين جاءه الخبر بأنها شارفت المدينة، فأراد أن يحضر لها عرشها، قبل أن تدخل عليه ليُريها مقدرة أهل دولته. وقد يكون عرشها محمولاً معها في رحالها، جاءت به معها لتجلس عليه خشية أن لا يهيبها لها سليمان عرشاً، فإن للملوك تقادير وظنوناً يحترزون منها خشية الغضاضة... ولما علم سليمان بأنها ستحضر عنده أراد أن يبهتها بإحضار عرشها الذي تفتخر به، وتعدّه نادرة الدنيا، فخاطب ملأه ليظهر منهم منتهى علمهم وقوتهم. فالباء في "عرشها" كالباء في قوله: "فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ (النمل: 37)"³، وذهب بعضهم إلى بيان كيفية نقل العرش أو الكرسي أو السرير تم من خلال استلال هذا العرش من بين حاشيتها، دون أن تعلم هي بذلك، والنقل في مدة ارتداد الطرف، ليس مقصودا بذاته، وإنما هو كناية عن الإسراع، في أسلوب بلاغي⁴.

¹ علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2، ص260.

² آش: المعجزات، ص89.

³ ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص270.

⁴ ينظر: العدوي: الإيمان بين الغيب والخرافة، ص113.

يقول تعالى: "إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ^ط قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ، قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ^ط وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ^ط فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ" (المائدة: 12-15).

عرض الرازي المعنى اللغوي للمائدة، فقال: "قال الزجاج: المائدة فاعلة من ماد يمد، إذا تحرك فكأنها تميد بما عليها، وقال ابن الأتباري: سميت مائدة لأنها عطية، من قول العرب: ماد فلان فلانا يميده ميذاً، إذا أحسن إليه، فالمائدة على هذا القول، فاعلة من الميد بمعنى معطية، وقال أبو عبيدة: المائدة فاعلة بمعنى مفعولة، مثل عيشة راضية، وأصلها مميدة ميد بها صاحبها، أي أعطيها وتقض عليه بها، والعرب تقول: مادني فلان يميني إذا أحسن إليه"¹.

وفي تفسير قوله تعالى: "قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ" (المائدة: 113)، ينقل الرازي تفاصيل هذه المائدة وأوصافها، فيقول: "روي أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفاً، ثم قال: اللهم أنزل علينا، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين؛ غمامة فوقها وأخرى تحتها، وهم ينظرون إليها، حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عليه السلام، وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها مثلة وعقوبة، وقال لهم: ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها، ويذكر اسم الله عليها، ويأكل منها. فقال شمعون رأس الحواريين: أنت أولى بذلك، فقام عيسى، وتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل. وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا شوك ولا فلوس، تسيل دسماً. وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا

¹ الرازي: التفسير الكبير: م 6، ج 12، ص 138.

خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله: أمن طعام الدنيا أمن طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما، ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية، كلوا ما سألتكم، واشكروا بمددكم الله ويزيدكم من فضله، فقال الحواريون: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: يا سمكة، احبي بإذن الله فاضطربت، ثم قال لها: عودي كما كنت فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا من بعدها، فمسيخوا قردةً وخنازير¹. وفي موطن آخر من التفسير، يبين طريقة الحصول على الطعام والشراب بصورة مختلف، فما سبق كان مائدة من مصدر سماوي، في حين الآخر من مصدر أرضي، وقد كان "الحواريون إثنى عشر رجلاً، اتبعوا عيسى عليه السلام، وكانوا إذا قالوا: يا روح الله جعنا، فيضرب بيده إلى الأرض، فيخرج لكل واحد رغيفان، وإذا عطشوا قالوا يا روح الله: عطشنا، فيضرب بيده إلى الأرض، فيخرج الماء فيشربون، فقالوا: من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا، وإذا شئنا سقيتنا، وقد آمنا بك فقال: أفضل منكم من يعمل بيده، ويأكل من كسبه، فصاروا يغسلون الثياب بالكراء، فسموا حواريين².

ويذكر الرازي رأياً آخر لإمامين في التفسير؛ هما الحسن ومجاهد، على أن هذه المائدة لم تنزل، وإنما هي مثل ضرب، فيقول: "اختلفوا في أنه هل نزلت المائدة. فقال الحسن ومجاهد: ما نزلت، واحتجوا عليه بوجهين؛ الأول: أن القوم لما سمعوا قوله: "أَعَذَّبُهُ عَذَاباً لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ"³ استغفروا، وقالوا لا نريدها. الثاني: أنه وصف المائدة بكونها عيداً لأولهم وآخرهم، فلو نزلت لبقى ذلك العيد إلى يوم القيامة⁴.

¹ الرازي: التفسير الكبير، م، 6، ج، 12، ص 141.

² السابق، م، 4، ج، 8، ص 71.

³ سورة المائدة، الآية: 115.

⁴ الرازي: التفسير الكبير، م، 6، ج، 12، ص 141.

ويبين المقصود بالعيد لغةً، فيقول: "والعيد في اللغة اسم لما عاد إليك في وقت معلوم، واشتقاقه من عاد يعود، فأصله هو العود، فسمي العيد عيداً؛ لأنه يعود كل سنة بفرح جديد"¹.

إن هذا الحدث كما صورته المفسرون لم يرد في العهد الجديد، ولكنه تجمع بخليط من الأحداث، وتحور ونما عن حدث العشاء الرباني المشهور في كتب الأنجيل، ففي إنجيل متى ومرقس: "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ، وقال: خذوا كلوا... إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي"²، وفي إنجيل لوقا: "ثم تناول كأساً وشكر، وقال: خذوا هذه واقتسموها بينكم، لأنني أقول لكم: إنني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله... وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم، ولكن هوذا يد الذي يسلمني هي معي على المائدة"³، وفي إنجيل يوحنا: "قام عن العشاء، وخلع ثيابه، وأخذ منشفة واتزر بها... لأنني أعطيتكم مثلاً، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً، الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله، إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه"⁴، وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس: "فحين تجتمعون معاً ليس هو لأكل عشاء الرب، لأن كل واحد يسبق فيأخذ عشاء نفسه في الأكل... لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً: إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها، أخذ خبزا، وشكر فكسر، وقال: خذوا كلوا هذا... من أكل هذا الخبز، أو شرب كأس الرب، بدون استحقاق، يكون مجرماً"⁵.

وإذا أضفنا إلى ما سبق مما يشتهر في الأنجيل وطقوس المسيحيين المحاكاة للعشاء الأخير، ما جاء في لوقا: "وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً؛ لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي"⁶ تبين نظير

¹ الرازي: التفسير الكبير، م، ج6، 12، ص139.

² متى26: 26-29. بنظر: مرقس14: 22-25.

³ لوقا22: 17-21.

⁴ يوحنا13: 4-17.

⁵ اكو11: 20-27.

⁶ لوقا22: 29-30.

مائدة السماء في الكتاب المقدس، ويزداد الأمر وضوحاً إذا عرضنا لرؤيا بطرس: "صعد بطرس على السطح ليصلي نحو الساعة السادسة. فجاء كثيراً واشتهى أن يأكل. وبينما هم يهيئون له، وقعت عليه غيبة، فرأى السماء مفتوحة، وإناء نازلاً عليه، مثل ملاءة عظيمة، مربوطة بأربعة أطراف، ومدلاة على الأرض. وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء. وصار إليه صوت: قم يا بطرس، اذبح وكل. فقال بطرس: كلا يارب! لأنني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه أيضاً صوت ثانية: ما طهره الله لا تدنسه أنت. وكان هذا على ثلاث مرات، ثم ارتفع الإناء أيضاً إلى السماء"¹.

ويرتد صدى التفسير في نوع الطعام الذي نزل على المائدة السماوية من السمك والأرغفة الخمسة، إلى الإنجيل الذي تناول معجزة ليسوع، يُشبع من خمسة أرغفة وسمكتين خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد، ويفضل عنه اثنتا عشرة قفة: "ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين: الموضع خلاء والوقت قد مضى. اصرف الجموع لكي يمضوا إلى القرى، ويبتاعوا لهم طعاماً، فقال لهم يسوع: لا حاجة لهم أن يمضوا. أعطوهم أنتم ليأكلوا، فقالوا له: ليس عندنا ههنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان، فقال: اثنتوني بها إلى هنا، فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب. ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين، ورفع نظره نحو السماء، وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ، والتلاميذ للجموع، فأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة، والأكلون كانوا نحو خمسة آلاف رجل، ما عدا النساء والأولاد"².

ولا غرو إن وجدنا الرواية تنمو مع مرور الزمن، إلى أن يتفرع عن العشاء الأخير الكأس المقدس لدى المفسرين الرهبان، "فقد كتب أحد الكتاب الأوائل بأن الكأس المقدس أُحضرت من السماء من قبل ملائكة"³.

¹ أعمال الرسل 10: 9-16.

² متى 14: 15-21.

³ كامبل: قوة الأسطورة، ص 275.

وفكرة المائدة المقدسة أو المائدة السماوية تظهر في أسطورة رافدية سومرية، وتهدف إلى إعطاء نواميس الحضارة والتقدم، وانتقال من يحظى بها من حالة البدائية¹، وتتوعد أصناف المائدة هذه بالماء البارد والجعة أو الخمرة، والحلوى بالزبدة:

"حياها عند المائدة المقدسة، مائدة السماء

صدع إيسموند بما أمر به

وعندما دخلت إنانا إلى الآبسو

أعطاهما كعك الزبدة لتأكل

وصب لها ماء باردا لتشرب

وقدم أمامها البيرة عند تمثال السبع

عاملها بما يليق بها

وحياها عند المائدة المقدسة، مائدة السماء"²

وفي ترجمة أخرى:

"قدم لها لتأكل الحلوى المصنوعة بالزبدة

وليصب لها الماء البارد المنعش للقلب

وعلى مقربة من الأسد قدم لها الجعة

¹ ينظر: السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ط2، دار علاء الدين، دمشق، 2001م. ص117-120.

² السواح: الأسطورة والمعنى، ص118-119.

استقبلها كصديقة عاملها كحليفة

على المائدة المقدمة على المائدة السماوية"¹.

¹ الشواف: ديوان الأساطير، ج3، ص196-197.

الفصل الثاني

الأسطورة في الإنسان ولوازمه

منذ وجد الإنسان بدأ ينظر في الكون ونفسه، ويفكر في سر وجوده وخالقه، والطبيعة من حوله، وظل بفطرته التي نفخ الله فيها من روحه، يتوق لربه؛ تارة بالبحث والتفكير، فيرشد أحيانا ويضل أخرى، وتارة بما بعث الله به النبيين من الهدى، فيستقيم عليه، ولا ينفك في هذه الدار عن منازعة الشيطان ونزغاته، فتتسرب إليه الأهواء وتغلبه الجهالاته، ثم ما تلبث أن تتراكم لتشكل جزءا من أساطيره، التي تخطط عملا صالحا من انبثاقات روحه وزكاتها، وآخر سيئا من فجورها وقصورها، فكانت أساطيره تجول في شتى ميادين الحياة.

سأتناول في هذا الفصل الأساطير التي جاز بها تفسير رفع عيسى إلى السماء، وإحياء الموتى، وامتداد النوم مئات السنين لأصحاب الكهف، وحجب منسأة سليمان موته عن خضع له، وإضاءة يد موسى، وتولد رزق مريم من العدم، وتمدد عمر نوح مئات السنين على غير المعتاد للبشر.

رفع عيسى إلى السماء

ذهب الرازي إلى القول برفع عيسى حيا بجسده إلى السماء، وكذلك ارتفع إدريس وإلياس¹، وبهذا الرفع لم يُمكن الله أعداءه من إيصال الشر إليه²، و"لما رُفِعَ إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة"³، وذهب الرازي إلى أن معنى "متوفيك" من قوله تعالى: "إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفَعْ يَدَيْكَ وَارْفَعْكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (آل عمران: 55)، بمعنى إخراج عيسى من الأرض، وإصعاده إلى السماء وافيًا، بتمام

¹ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م، 4، ج، 8، ص 34،

² السابق، م، 4، ج، 8، ص 74.

³ السابق، م، 4، ج، 8، ص 76.

روحه وجسده¹، وواجه الرازي مشكلة في دلالة ضمير الياء من قوله تعالى: "إِلَيَّ"، ولكي ينزه الله عن المكان، أَوَّلَ المعنى، فقال: " المراد إلى محل كرامتي، وجعل ذلك رفعا إليه للتخيم والتعظيم، مثل قوله: "وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي" (الصفات: 99)، وإنما ذهب إبراهيم من العراق إلى الشام².

وفي التأويل رفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله، ويتأوله أيضا بمحل ثوابه ومجازاته، في سبيل نفي المكان عن الله تعالى³، ولكنه يختم بقول ينفي معنى الرفع على الحقيقة الجسدية، مما يعني عدم الرفع إلى السماء، فيقول: "واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله "ورافعك إلي"، هو الرفعة بالدرجة والمنقبة، لا بالمكان والجهة، كما أن الفوقية في هذه ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة"⁴، وفي هذا المعنى أورد نظيره لرفع إدريس من قوله تعالى: "وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا" (مريم: 57)، ولكنه لم يذهب لتقريره، كما فعل في رفع عيسى، وهو ما يكشف عن اضطراب واضح في معالجته لمسألة صعود بشر إلى السماء، فحيث جوّز ذلك عموما، أشكل عليه ضمير الياء العائدة على الله سبحانه في قصة عيسى، فاشتد في صرفها إلى معنى مجازي لنفي المكان عن الله، دون أن ينفي رفع عيسى بجسده إلى السماء، وهو ما أدخله في الاضطراب، باعتبار أن نفي رفع عيسى إلى مكان حقيقي، وتقرير معنى الرفع، برفع المكانة والمنقبة والدرجة، سيُسقط رفعه إلى السماء تلقائيا؛ إذ لا دليل عليه في القرآن سوى الآية، ونجد هذا الارتباك يصيب الرازي في رفع إدريس، ولكن بدرجة أقل؛ لأن مكان الرفع لا يضاف إلى الله سبحانه، فيقول: "المراد به الرفعة في المكان إلى موضع عال، وهذا أولى، لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة في المكان لا في الدرجة، ثم اختلفوا، فقال بعضهم: إن الله رفعه إلى السماء وإلى الجنة، وهو حي لم يمت، وقال آخرون: بل رفع إلى السماء، وقبض روحه. سأل ابن عباس رضي الله عنهما كعبا عن قوله: "ورفعناه مكانا عليا" قال: جاءه خليل له من الملائكة، فسأله حتى

¹ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م4، ج8، ص76.

² السابق، م4، ج8، ص77.

³ السابق، م4، ج8، ص77.

⁴ السابق، م4، ج8، ص78.

يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه، فحمله ذلك الملك بين جناحيه، فصعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة، فإذا ملك الموت يقول: بعثت، وقيل لي: أقبض روح إدريس في السماء الرابعة، وأنا أقول: كيف ذلك وهو في الأرض؟ فالتفت إدريس، فرآه ملك الموت، فقبض روحه هناك. واعلم أن الله تعالى إنما مدحه بأن رفعه إلى السماء؛ لأنه جرت العادة أن لا يرفع إليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة¹.

إن فكرة صعود البشر إلى السماء ليس منشؤها التفسير أو فهم النص المقدس، وإنما هي فكرة قديمة راودت البشر، ووردت في أساطير الكثير من الشعوب، ففي أساطير حضارة الرافدين القديمة نجد الصعود من الأرض إلى السماء لم يقتصر على الآلهة، وإنما تضمن ذلك البشر أيضا، أما صعود الآلهة فمثال عليه:

"فصعد آنو إلى السماء

واتخذ إنليل من الأرض مقرا لحكمه...

عندما آنو صعد إلى السماء

فإن آلهة الأبسو نزلوا إليه

وآنذاك فرض الأنوناكو السماويون

على الإيجي سخرتهم².

وأما صعود البشر إلى السماء، فكان يتطلب "ميزات خاصة، سواء أكان ذلك بسبب تقواهم، أم بسبب معرفتهم المتفوقة والقدرة الخاصة التي تخولهم هذه المعرفة"³، والاعتقاد بصعود بشر إلى السماء كان

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 21.

² الشواف: ديوان الأساطير، ج 2، ص 232.

³ السابق، ج 2، ص 463.

من المعتقدات الراسخة والرسمية في بابل، حتى إن كهنة الإيساجيل لم يتقبلوا انتقاد (نبونيد) ملك بابل حين أنكر صعود (أدابا) إلى سماء أنو¹، ومن حكماء ما قبل الطوفان، والذين تميزوا بقدرات خارقة، سجلت لقية أثرية رقية، جاء فيها:

"أدابا الكاهن المطهر في إريدو، وهو الذي صعد إلى السموات"²

وفي الأسطورة صعد إلى السماء ثم عاد إلى الأرض:

"سوف تذهب شخصيا يا أدابا للمثول

أمام أنو الملك

سوف تأخذ طريقك إلى السموات

وعندما إلى السموات

ستصعد وتقترب من بوابة أنو...

جعله الرسول يأخذ طريق السموات وأصعد إليها

وعندما تم إيصاله إلى السموات...

فليأخذ إذن قال أنو وليعد

إلى أرضه"³.

¹ الشواف: ديوان الأساطير، ج2، ص477.

² السابق، ج2، ص465.

³ السابق، ج2، ص481-484.

ومن الأبطال أو الحكماء الذين صعدوا إلى السماء، (إيتانا) وهو رابع ملك حكم في مدينة كيش بعد الطوفان، وهو الذي صعد إلى السماء على جناح نسر¹، لكي يحضر نبتة مزروعة في السماء، بقصد شفائه من العقم، وهو رجل صالح، يصلي كل يوم، ويقدم القرابين دون أن يرزق بـ غلام يخلفه على العرش²:

"قال النسر لإيتانا:

يا صديقي رائعة هي المناطق السماوية

تعال لكي أحملك نحو سماء آنو...

بعد أن تم صعودهما إلى سموات آنو

مرا ببوابة آنو وإنليل وإيا

عند ذلك النسر وإيتانا سجدا معا...

يا صديقي أنا ما عدت أريد الصعود إلى السموات

وجه سيرك لكي أعود إلى الأرض"³.

إن فكرة صعود البشر إلى السماء بأجسادهم اشتهرت لدى معظم الشعوب، فالهنود اعتقدوا أن الشامانيين الأوائل صعدوا للسماء بلحمهم وعظمهم⁴، بطرق مختلفة، وخلال استغراق الشامان يصعد إلى السماء على حبل ينزل إليه من هناك، وأما النجوم التي تعيق طريقه فإنه يزيحها بيده⁵، وقد نجح الراهب

¹ الشواف: ديوان الأساطير، ج2، ص466.

² ينظر: السواح: الأسطورة والمعنى، ص53.

³ الشواف: ديوان الأساطير، ج2، ص502-505.

⁴ ينظر: إلياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج3، ص293.

⁵ ينظر: ألبيديل: سحر الأساطير، ص133.

(بكشو) في الصعود للسموات، حتى وصل إلى السماء العليا، سماء البراهمة¹، وفي الديانة التيببتية يعتقدون أن القديسين والسحرة المتميزين، ما زالوا ينجحون في الصعود إلى السماء بفضل حبلهم (مو)²، ويتشابه هذا المعتقد مع الأساطير الصينية، فعندما "كانت المسافة القصوى بين الأرض والسماء تسمح للآلهة بالنزول والاختلاط مع البشر، وللبر أن يصعدوا للسماء بتسلقهم جبلا أو شجرة أو سلما، أو أيضا بتركهم يحملون من قبل الطيور، وعلى أثر حدث أسطوري انشقت السماء بعنف عن الأرض، فقطعت الشجرة، وتسطح الجبل الذي كان يلامس السماء، مع ذلك فإن بعض الكائنات المتمتعة بامتيازات -شامانيون، صوفيون، أبطال، أسيا- قادرون للارتقاء بنشوة إلى السماء معيدين هكذا الاتصال المنقطع"³، وكذلك "بوذا صعد إلى السماء وعاد ثانية"⁴، وعند الشعوب الأفريقية الناطقة بالبانطوية يعتقدون أن الصعود للسماء متاح للأبطال، وعدوا هذا الصعود فعلا متاحا للمختارين⁵، وفي أسطورة اندونيسية تبين أن بذور الرز سرقها فتى، اعتاد الصعود إلى السماء عن طريق قوس قزح، وكان ينكشف أمر إخفائه البذور، ولكنه نجح مرة بإخفائها في جروح قدميه، وحملها إلى الأرض⁶، وفي روما أعلن الساحر سيمون "صعوده للسماء أمام جمهور معتبر من المشاهدين، غير أن الصلاة التي تلاها الرسول (بطرس) جعلته يسقط بحالة مؤلمة"⁷.

وتسللت فكرة صعود البشر للسماء إلى الموروث الديني، فنجد أن كهنة الزرادشتية، قد جهزوا (فيراز) الصالح بطقوس خاصة؛ لكي يصعد بروحه إلى السموات، ويطلع على ما فيها، ثم عاد الرسول الزرادشتي بعد سبعة أيام، ليحدثهم بكل ما رأى وسمع⁸، وفي تورا ما بين العهدين، نجد باروخ يأتيه

¹ ينظر: العجمي: صحف إبراهيم، ص 78-79.

² ينظر: إلياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج 3، ص 291.

³ السابق، ج 2، ص 16.

⁴ كامبل: قوة الأسطورة، ص 208.

⁵ ينظر: ألبيريل: سحر الأساطير، ص 207.

⁶ السابق، ص 74.

⁷ إلياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج 2، ص 410.

⁸ ينظر: عبد الرحمن: أفسستا، ص 874-902.

ملاك القوى ليدعوه إلى الصعود إلى السماوات العلى، ويكشف له عن أسرار الله، ومن سماء إلى أخرى يصعد باروخ مجتازا البوابات، ومطلعا على كل سماء بما فيها، ثم يعيده الملاك إلى نقطة الانطلاق¹.

وكذلك يُرفع أخنوخ، فبينما كان "يحادث شعبه، أرسل الرب العتمة على الأرض، وحلت الظلمات، وغطت الظلمات البشر الواقفين مع أخنوخ، وسارع الملائكة إلى أخذ أخنوخ، وإلى إصعاده إلى السماء العليا، واستقبله الرب، وأحله أمام وجهه إلى الأبد، وانسحبت الظلمات من الأرض وكان النور، وأبصر الشعب، وفهم كيف أن أخنوخ رفع، ومجدوا الله ومضوا إلى بيوتهم"².

وليس الكتاب المقدس ببعيد عن فكرة الصعود إلى السماء، فهو يسجل صعود إيلياء إلى السماء أمام أليشع، وقد جاء في ملوك الثاني: "وكان عند إصعاد الرب إيليا في العاصفة إلى السماء... وقف كلاهما بجانب الأردن، وأخذ إيليا رداءه، ولفه وضرب الماء، فانفلق إلى هنا وهناك، فعبرا كلاهما في اليبس... وفيما هما يسيران ويتكلمان، إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما، فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء"³.

وعندما واجه كهنة اليهود المسيح بآخر ما كتب في العهد القديم، في نزول إيلياء من السماء، كما قال الرب: "هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي، قبل مجيء يوم الرب، اليوم العظيم والمخوف"⁴، أنكر المسيح صعود أحد إلى السماء: "ليس أحد صعد إلى السماء، إلا الذي نزل من السماء"⁵، وتأول نزول إيلياء بشخص يوحنا: "لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيلياء المزمع أن يأتي"⁶، وأجاب على ما زعم الكهنة من مجيء إيلياء قبل المسيح⁷: "سأله تلاميذه قائلين:

¹ ينظر: دويون، أندريه، سومر مارك فيلوننكو: التوراة كتابات ما بين العهدين، ط1، ترجمة: موسى الخوري، دار الطليعة، دمشق، 1999م، ج3، ص126-132.

² دويون: التوراة كتابات ما بين العهدين، ج3، ص162.

³ ملوك الثاني2: 1-11.

⁴ ملاخي4: 5.

⁵ يوحنا3: 13.

⁶ متى11: 13-14.

⁷ ينظر: هووك: منعطف المخلية البشرية، ص130-131.

فلماذا يقول الكتبة: إن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً؟ فأجاب يسوع، وقال لهم: إن إيليا يأتي أولاً، ويرد كل شيء، ولكني أقول لكم: إن إيليا قد جاء، ولم يعرفوه... حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان¹، ومع ما سبق من تأويل المسيح أمر الصعود إلى السماء والنزول، صار هو إلى الرفع والنزول حقيقة في الموروث عنه، "رفع يديه وباركهم، وفيما هو يباركهم انفرد عنهم، وأصعد إلى السماء"²، ولأن هذا المعتقد يصور المسيح ابن الله، وكأنسان إلهي، كان موضعه الطبيعي هو السماء³، "ثم إن الرب (المسيح) بعدما كلمهم، ارتفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله"⁴، وكونه صعد إلى السماء بمعتقدهم، صاروا ينتظرون نزوله: "ارتفع وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعينهم، وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق، إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض، وقالا: أيها الرجال الجليليون، ما بالكم واقفين تنتظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء، سيأتي هكذا، كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء"⁵، وبسحابة أيضاً ارتفع هرقل إلى السماء⁶، وقد تطور أمر الصعود، ليشمل عند البعض فيما بعد، صعود مريم إلى السماء⁷.

وفي محاولة لتفسير صعود المسيح مجازياً، يقول جوزيف كامبل: "حتى لو كان الصعود بسرعة الضوء، يمكن أن يكون المسيح لا يزال في المجرة، وقد أزال كل من علم الفلك والفيزياء المعنى الحرفي، والإمكانية الجسدية... فيجب أن نصعد معه بالذهاب إلى الباطن، إنها استعارة من أجل العودة إلى المنشأ، البداية والنهاية، أي التخلي عن التأكيد على الجسد، والذهاب إلى منبع الجسد الديناميكي"⁸.

¹ متى 17: 10-13.

² لوقا 24: 50-51.

³ ينظر: زيدان، يوسف: اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، ط2، دار الشروق، القاهرة، 2010م، ص72.

⁴ مرقس 16: 19.

⁵ أعمال الرسل 1: 9-11.

⁶ ينظر: فريزر: أدونيس، ص100.

⁷ ينظر: آش: المعجزات، ص92.

⁸ كامبل: قوة الأسطورة، ص89.

وفكرة رفع المسيح للسماء حيا يراها نيتشه معتقد توهم، بذره بولس لتشكيل القطعان¹، والمعتقد المصري يجعل عالم الموتى في السماء، فالفرعون أو الملك يصعد بعد الموت بروحه، من خلال سلم علوي عظيم أو غيره من الوسائل، كما تفيد نصوص الأهرامات²، وفي هذا الاتجاه، يرى البعض انتهاء عصر الصعود المادي إلى السماء، وسقوط مختلف الصقالات التي تُمَتِّطُ لهذا الغرض، لدى محرر القصة التوراتية، والتي كانت الزيغورات البابلية من منعكساتها³، وصار التصوف اليهودي يعطي الأهمية للتصاعد الوجداني أو المعراج الروحي، ومن المعلوم أن صعود الروح عبر السماوات، والأخطار التي تواجهها، كانت نعمة عامة في الغنوصية والهرمسية للقرنين الثاني والثالث⁴.

وهذا الصعود الوجداني إلى السماء، بدوره ظهر في المسيحية، في القديس بولس⁵، مع تردد أفي الجسد أم لا؟ "أعرف إنسانا في المسيح، قبل أربع عشرة سنة، أفي الجسد؟ لست أعلم، أم خارج الجسد؟ لست أعلم، الله يعلم، اختطف هذا إلى السماء الثالثة، وأعرف هذا الإنسان؛ أفي الجسد أم خارج الجسد؟ لست أعلم، الله يعلم أنه اختطف إلى الفردوس، وسمع كلمات لا ينطق بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها، من جهة هذا أفتخر، ولكن من جهة نفسي لا أفتخر إلا بضعفاتي"⁶، والتصوف في الإسلام يعتبر المعراج ترقيا روحانيا، فمن "المكملين من يذهب به الحق من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح، وهؤلاء أعلى مراتب، فمنهم من يخاطب في قلبه، ومنهم من يصعد بروحه إلى سماء الدنيا، ومنهم إلى الثانية والثالثة، كل على حسب ما قسم له، ومنهم من يصعد به إلى سدرة المنتهى، فيكلمه هناك"⁷.

¹ ينظر: نيتشه، فريدريك: **عدو المسيح**، ط2، ترجمة: جورج ديب، دار الحوار، سوريا، د.ت.، ص114، ص118-119.

² ينظر: تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة**، ط1، ترجمة: أحمد قدرى، دار الشروق، 1996م، ص108.

³ ينظر: إلياد: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ج1، ص212.

⁴ السابق، ج3، ص181-182.

⁵ السابق، ج3، ص217.

⁶ رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس 12: 1-5.

⁷ الجيلي، عبد الكريم: **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، ط1، تحقيق: صلاح عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص70.

ولكن للإمام الأكبر شلتوت، في مسألة رفع عيسى إلى السماء، رأي آخر، يقول: "إنه ليس في القرآن الكريم، ولا في السنة المطهرة، مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب؛ بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء، وأنه حيّ إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض"¹، ومثله قدّم أحمد شلبي العديد من مباحث العلماء القدامى والمعاصرين، وساق آراءهم في إنكار رفع عيسى بجسده إلى السماء، ثم ذهب أن المقصود بالرفع رفع الروح بالموت تعظيماً وتكريماً، لا رفع الجسد²، قال: "نقرر أن الاعتقاد بأن عيسى رفع بجسمه وروحه، اعتقاد متأثر بالفكر المسيحي، الذي يرى أن عيسى هو الإله الابن، نزل من السماء، ثم رفع؛ ليعود للجلوس بجوار أبيه الأب"³.

إحياء الموتى

تعددت الإحياءات للموتى في تفسير الرازي، وسأقتصر على عرض ما يحقّق الكفاية في هذا المبحث، ويكشف تصور الرازي في جواز إحياء من مات في الدنيا قبل البعث، يقول الرازي في تفسير قوله تعالى: "ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (البقرة: 56): أحييكنم لتتوبوا عن بغيكم"⁴، ويزيد الأمر تفصيلاً، فيقول: "أخذتهم الصاعقة، وماتوا جميعاً، وقام موسى رافعاً يديه إلى السماء يدعو، ويقول: يا إلهي اخترت من بني إسرائيل سبعين رجلاً؛ ليكونوا شهودي بقبول توبتهم، فأرجع إليهم، وليس معي منهم واحد، فما الذي يقولون فيّ، فلم يزل موسى مشتغلاً بالدعاء حتى رد الله إليهم أرواحهم... فقاموا، ونظر كل واحد منهم إلى الآخر؛ كيف يحييه الله تعالى؟ فقالوا: يا موسى إنك لا تسأل الله شيئاً إلا أعطاك، فادعه يجعلنا أنبياء، فدعاه بذلك فأجاب الله دعوته"⁵.

¹ شلتوت، محمود: الفتاوى دراسة لمشكلات المعلم المعاصر في حياته اليومية والعامة، ط14، درار الشروق، القاهرة، 1987م، ص65.

² ينظر: شلبي، أحمد: المسيحية، ط10، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1998م، ص56-70.

³ السابق، ص69.

⁴ الرازي: التفسير الكبير، م2، ج3، ص89.

⁵ السابق، م2، ج3، ص90-91.

ويرد على من يتساءل عن التكليف بعد البعث من الموت، فيقول: "إنما بعثهم بعد الموت في دار الدنيا ليكلفهم وليتمكنوا من الإيمان ومن تلافي ما صدر عنهم من الجرائم... فإن قيل: كيف يجوز أن يكلفهم وقد أماتهم، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكلف أهل الآخرة إذا بعثهم بعد الموت؟ قلنا: الذي يمنع من تكليفهم في الآخرة ليس هو الإمامة ثم الإحياء، وإنما يمنع من ذلك أنه قد اضطرب يوم القيامة إلى معرفته، وإلى معرفة ما في الجنة من اللذات، وما في النار من الآلام وبعد العلم الضروري لا تكليف فإذا كان المانع هو هذا لم يمتنع في هؤلاء الذين أماتهم الله بالصاعقة أن لا يكون قد اضطربهم، وإذا كان كذلك صح أن يكلفوا من بعد ويكون موتهم ثم الأحياء بمنزلة النوم أو بمنزلة الإغماء. ونقل عن الحسن البصري أنه تعالى قطع آجالهم بهذه الإمامة ثم أعادهم كما أحيأ الذي أماته حين مر على قرية وهي خاوية على عروشها وأحيأ الذين أماتهم بعدما خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت"¹.

وفي تفسير قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ" (البقرة: 243)، ينقل الرازي قصتهم: "كانت قرية وقع فيها الطاعون وهرب عامة أهلها، والذين بقوا مات أكثرهم، وبقي قوم منهم في المرض والبلاء، ثم بعد ارتفاع المرض والطاعون رجع الذين هربوا سالمين، فقال من بقي من المرضى: هؤلاء أحرص منا، لو صنعنا ما صنعوا لنجونا من الأمراض والآفات، ولئن وقع الطاعون ثانيا خرجنا فوق وقع وهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفا، فلما خرجوا من ذلك الوادي، ناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه: أن موتوا، فهلكوا وبليت أجسامهم، فمر بهم نبي يقال له: حزقيل، فلما رآهما وقف عليهم وتفكر فيهم فأوحى الله تعالى إليه أتريد أن أريك كيف أحبيهم؟ فقال نعم فقل له: ناد أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي، فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى تمت العظام ثم أوحى الله إليه: ناد يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحما ودماء، فصارت لحما ودماء، ثم قيل: ناد إن الله يأمرك أن تقومي فقامت، فلما صاروا أحياء قاموا، وكانوا يقولون: "سبحانك ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت" ثم رجعوا إلى قريتهم بعد حياتهم، وكانت أمارات أنهم

¹ الرازي: التفسير الكبير، م2، ج3، ص93.

ماتوا ظاهرة في وجوههم، ثم بقوا إلى أن ماتوا بعد ذلك بحسب آجالهم¹، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنهم ماتوا ثمانية أيام، حتى انتفخوا وأنتنوا، ثم أحياهم²، واختلفوا في عددهم ما بين ثلاثة آلاف، وسبعين ألفاً³.

ويعرض الرازي لقول يُشتم منه رفض فكرة الموت على النحو المعتاد، بدعوى من عاين الأهوال عند الموت لا يصح ان يبعث بتكليف، فيقول: " قد ثبت بالدلائل أن معارف المكلفين تصير ضرورية عند القرب من الموت: وعند معاينة الأهوال والشدائد، فهؤلاء الذين أماتهم الله ثم أحياهم لا يخلو إما أن يقال: إنهم عاينوا الأهوال والأحوال التي معها صارت معارفهم ضرورية، وإما ما شاهدوا شيئاً من تلك الأهوال بل الله تعالى أماتهم بغتة، كالنوم الحادث من غير مشاهدة الأهوال البتة، فإن كان الحق هو الأول، فعندما أحياهم يمتنع أن يقال: إنهم نسوا تلك الأهوال ونسوا ما عرفوا به ربهم بضرورة العقل، لأن الأحوال العظيمة لا يجوز نسيانها مع كمال العقل، فكان يجب أن تبقى تلك المعارف الضرورية معهم بعد الإحياء، وبقاء تلك المعارف الضرورية يمنع من صحة التكليف، كما أنه لا يبقى التكليف في الآخرة"⁴، فيرد ذلك بأن يقال: "إنهم بقوا بعد الإحياء غير مكلفين، وليس في الآية ما يمنع منه، أو يقال: إن الله تعالى حين أماتهم ما أراهم شيئاً من الآيات العظيمة التي تصير معارفهم عندها ضرورية، وما كان ذلك الموت كموت سائر المكلفين الذين يعاينون الأهوال عند القرب من الموت، والله أعلم بحقائق الأمور"⁵.

ويفسر الرازي قول الله في عيسى: "وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي" (المائدة: 110)، "أي وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياء بإذني، أي بفعلتي ذلك عند دعائك، وعند قولك للميت: أخرج بإذن الله من قبرك"⁶، ونقل

¹ الرازي: التفسير الكبير، م3، ج6، ص176.

² السابق، م3، ج6، ص176.

³ السابق، م3، ج6، ص177.

⁴ السابق، م3، ج6، ص178.

⁵ السابق، م3، ج6، ص178.

⁶ السابق، م6، ج12، ص134.

عن الكلبي الدعاء الذي يحيي به، فقال: "كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات بيا حي يا قيوم، وأحيا عاذر، وكان صديقاً له، ودعا سام بن نوح من قبره، فخرج حياً، ومرّ على ابن ميت لعجوز فدعا الله، فنزل عن سريريه حياً، ورجع إلى أهله وولد له"¹، وتناول الرازي الذي أحياه الله بعدما قُتل، لما ضربه ببعض البقرة، من قوله تعالى: "فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (البقرة: 73)، فقام وأوداجه تشخب دماً، وقال: قتلني فلان وفلان، لا بني عمه، ثم سقط ميتاً²، وكذلك إحياء الذي مر على قرية، بعدما أماته الله مئة عام، ثم أحياه وحماره أمامه³، وينقل عن علي رضي الله عنه في سبب تسمية ذي القرنين أنه "كان عبداً صالحاً، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله، فمات، ثم بعثه الله، فضرب على قرنه الأيسر، فمات، فبعثه الله، فسمي بذي القرنين"⁴، ونقل الرازي إحياء لغير البشر في تفسيره، فأورد تعليلاً لضحك امرأة إبراهيم، من قوله تعالى: "وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ" (هود: 71)، وقال: "إن الملائكة لما أخبروا إبراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة لا من البشر، وأنهم إنما جاؤوا لإهلاك قوم لوط، طلب إبراهيم عليه السلام منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة، فدعوا ربهم بإحياء العجل المشوي، فطفر ذلك العجل المشوي من الموضع الذي كان موضوعاً فيه إلى مرعاه، وكانت امرأة إبراهيم عليه السلام قائمة، فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوي، قد طفر من موضعه"⁵.

وذهب الرازي في موضع آخر من تفسيره إلى معنى إحياء الموتى بمفهومه المجازي، كما جاءت بذلك بعض الآيات، "قال أهل المعاني: قد وصف الكفار بأنهم أموات في قوله: "أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ" (النحل: 21)، وأيضاً في قوله: "لِيُنْذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا" (يس: 70) وفي قوله: "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى" (النمل: 80، الروم: 52) وفي قوله: "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ" (فاطر: 22)، فلما

¹ الرازي: التفسير الكبير، م، 4، ج، 8، ص 64.

² ينظر: السابق، م، 2، ج، 3، ص 135.

³ السابق، م، 4، ج، 7، ص 33-40.

⁴ السابق، م، 11، ج، 21، ص 165.

⁵ السابق، م، 9، ج، 18، ص 27.

جعل الكفر موتاً والكافر ميتاً، جعل الهدى حياة والمهتدي حياً"¹، وصرح في موطن آخر أن المقصود بـ(أحييناه)، "كناية عن المعرفة والهدى"²، ونقل عن "أهل التصوف أن المراد من الموتى، القلوب المحجوبة عن أنوار المكاشفات والتجلي، والإحياء عبارة عن حصول ذلك التجلي والأنوار الإلهية"³.

إن فكرة إحياء الموتى وردت في الأساطير القديمة، كما جاءت في الكتب المقدسة قبل القرآن، بحيث شكلت قبولاً ذهنياً لدى المفسرين، تأخذ النص القرآني البليغ في اتجاهها الحرفي، مع تكميل للنص القرآن بروايات الإخباريين، وظلت في المرويات اللاحقة مستمرة حتى ما بعد موسى وعيسى، وما بعد النبي الخاتم محمد الكريم، داخلةً في مجال الكرامة، وقد صيرها ابن تيمية من جنس ما جرى للأنبياء، ولكن على يد الأولياء، فقال: "إحياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما أحياء للأنبياء"⁴، وقد ظهر مؤلفٌ لعالم مشهور في علم الحديث، عاش في القرن الثالث الهجري، وعنوانه (من عاش بعد الموت)، قدّم لنا العديد ممن حيوا بعد موتهم في الدنيا كرامةً بفعل الصالحين⁵.

لقد ظهرت العودة للحياة في الأساطير الرافدية، من خلال عودة (أناتا) أو عشتار التي نهضت من الموت بعد ثلاثة أيام، بمعونة آلهة العالم الأعلى، ولكن من خلال زوجها (دموزي) كبديل عنها، يحل محلها⁶:

"ركزوا أنظارهم عليها أنظار الموت

وبكلمة منهم الكلمة التي تعذب الروح

¹ الرازي: التفسير الكبير، م7، ج13، ص180.

² السابق، م7، ج13، ص182.

³ السابق، م4، ج7، ص43.

⁴ ابن تيمية، تقي الدين: النبوات، تحقيق: عبد العزيز الطويان، ط1، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 2000م، ص142.

⁵ ينظر: ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد: من عاش بعد الموت، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1993م.

⁶ ينظر: إلياد: تاريخ المعتقدات، ج1، ص88. الربيعو، تركي علي: الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992م، ص46.

تحولت المرأة المتعبة إلى جثة

ثم شددت هذه الجثة إلى وتد مغروس¹

"بعد مض ثلاثة أيام وثلاث ليال"²

"سلمتني لأكون بديلا

عنها في العالم السفلي"³.

وفي الأسطورة المصرية تشابه مع حياة العودة للميت؛ حيث يعيد (حورس) الميت أوزيريس، "لقد سافرت، ولكنك عدت، لقد نمت، ولكنك استيقظت؛ لقد مت، ولكنك عشت من جديد"⁴، وكان الكاهن المصري القديم يمتلك قدرات في معتقدتهم، تمكنه من إحياء الموتى، وتحويل الناس إلى حيوانات⁵، في حين لدى كهنة الزرادشتية معرفة بشجرة، بواسطتها يحيون الأموات⁶، وفي الأساطير الإغريقية، ملك (اسكولابيوس) مقدرة فائقة، وقصده الناس من كل فج عميق، حتى أنه أعاد رجلا إلى الحياة⁷، وأورفيوس يتضرع لـ(زفس) بعدما ماتت زوجته بلدغة أفعى سامة، فيستجيب ويعيدها إلى الحياة⁸، وفي الأساطير الهندية، لدى فتاة أغنية سحرية، لها قوة خارقة تعيد الحياة للميت⁹، ولدى اللاما طقس يحتضن به الجثة ثم "يضع شفثيه على شفثيها، وعندئذ تعود الجثة إلى الحياة، وتبعث بعد موتها"¹⁰،

¹ الربيعو، تركي علي: الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992م، ص46.

² الشواف: ديوان الأساطير، ج4، ص66.

³ السابق، ج4، ص83.

⁴ إلباد: تاريخ المعتقدات، ج1، ص126.

⁵ السواح: دين الإنسان، ص197.

⁶ عبد الرحمن: أفسنا، ص821.

⁷ ينظر: غيربر: أساطير الإغريق والرومان، ص38.

⁸ السابق، ص44.

⁹ كامبل: قوة الأسطورة، ص116.

¹⁰ صالح: الإنسان الحائر، ص36.

ولدى الاستراليين أسطورة عن شخص طوطم (أبوسوم)، "قد مات هذا ودفن، لكنه سرعان ما خرج من القبر في صورة فتى، وبقي هكذا، يموت ثم يعود إلى الحياة في السماء من جديد"¹.

وأما الكتاب المقدس بعهديه، فاستمر يكرر هذا الخرق المعجز، ففي العهد القديم يعيد إيليا ولدا للحياة، بعدما صرخ للرب: "وقال: يا رب إلهي لترجع نفس هذا الولد الى جوفه، فسمع الرب لصوت إيليا، فرجعت نفس الولد الى جوفه فعاش، فأخذ إيليا الولد، ونزل به من العلبة إلى البيت، ودفعه لأمه، وقال إيليا: انظري، ابنك حي، فقالت المرأة لإيليا: هذا الوقت، علمت أنك رجل الله، وأن كلام الرب في فمك حق"².

ومثل ذلك فعل أليشع مع صبي ميت، فقام حيا، "ودخل أليشع البيت واذا بالصبي ميت، ومضطجع على سرير، فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما، وصلى إلى الرب، ثم صعد واضطجع فوق الصبي، ووضع فمه على فمه، وعينه على عينيه، ويديه على يديه، وتمدد عليه فسخن جسد الولد، ثم عاد وتمشى في البيت، تارة إلى هنا، وتارة إلى هناك، وصعد وتمدد عليه، فعطس الصبي سبع مرات، ثم فتح الصبي عينيه"³، وإن كان أليشع أحيا بفضل صلاته الله، فإن حدثا آخر، قام فيه الميت بمجرد أن مسّت عظام أليشع جثته: "ومات أليشع فدفنوه، وكان غزاة موآب تدخل على الأرض عند دخول السنة، وفيما كانوا يدفنون رجلا، إذا بهم قد رأوا الغزاة، فطرحوا الرجل في قبر أليشع، فلما نزل الرجل، ومس عظام أليشع عاش، وقام على رجليه"⁴.

وفي العهد الجديد تعددت وقائع إحياء الموتى بفعل المسيح، فقد أحيا ابنة رئيس المجمع، بمجرد أن قال لها: "يا صبية لك أقول: قومي، وللوقت قامت الصبية ومشت"⁵، وأقام من الموت ابن أرملة نابين، وهو

¹ أليبيد: سحر الأساطير، ص282.

² ملوك الأول 17: 20-24.

³ ملوك الثاني 4: 32-35.

⁴ ملوك الثاني 13: 20-21.

⁵ إنجيل مرقس 5: 41-42.

ميت محمول، فلمس النعش وقال: "أيها الشاب لك أقول: قم، فجلس الميت، وبدأ يتكلم"¹، وكذلك أحيا لعازر الميت في قبره بعدما مضى عليه أربعة أيام وأنتن، وقد صرخ بصوت عظيم: "لعازر، هلم خارجا، فخرج الميت، ويده ورجلاه مربوطات بأقمطة، ووجهه ملفوف بمنديل"²، وإن كان بمقدور المسيح إحياء الموتى، وإخراج من في القبور، فكيف يعجز عن إحياء نفسه بعدما مات، ولذلك تولدت فكرة القيامة للمسيح من الأموات، "إنه قد قام من الأموات"³، وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم، ويقوم من الأموات في اليوم الثالث"⁴.

ومعجزة أن يحيا الميت بنفسه، ظهرت في كرامات الأولياء في الأمة، فالسيد البدوي أحيا نفسه وهو ميت"⁵، فغسل نفسه، وبعد انتهائه من الأمر مات ثانية"⁶، ومثل ذلك حدث مع الجيلاني، فقام من الموت بعدما كان على المغسل"⁷، وأحيا نفسه بنفسه"⁸، وأما أن يحيي الولي شخصا ميتا، فقد توارد في كرامات الأولياء، من ذلك الشيخ حسن الذي أحيا ميتا بعد دفنه"⁹، وفي كتاب (من عاش بعد الموت) لابن أبي الدنيا الكفاية.

ومن غرائب إحياء الموتى في الحيوانات، ما جاء عن عبد القادر الجيلاني، من أن "امرأة جاءت إليه بولدها، وقالت: رأيت قلب ولدي شديد التعلق بك، وخرجت عن حقي فيه لك، فأخذه بالمجاهدة وسلوك الطريق، فجاءته أمه يوما، فوجدته نحىلا مصفرا من آثار الجوع والسهو وأكل خبز الشعير، فتركته،

¹ إنجيل لوقا 7: 14-15.

² إنجيل يوحنا 11: 43-44.

³ إنجيل متى 28: 7.

⁴ إنجيل لوقا 24: 46.

⁵ خليل، خليل أحمد: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، الأسوار، عكا، 1973م، ص 105.

⁶ ينظر: زيعور: الكرامة الصوفية، ص 137.

⁷ السابق، ص 58.

⁸ السابق، ص 119.

⁹ السابق، ص 39.

ودخلت للشيخ، فرأت بين يديه دجاجا يأكله، فقالت: يا سيدي تأكل الدجاج ويأكل ولدي الشعير، فوضع يده على العظام، وقال: قومي بإذن الله، فقامت، فقال الشيخ: إذا صار ابنك هكذا، فليأكل ما شاء"¹.

ومن عجائب إحياء الموتى، ما يروى عن لص قطع أعداؤه رأسه، ولأنه كان يصوم أحيانا على شرف العذراء، فأبقت رأسه المقطوع حيا في حفرة طويلة، وسمع أحد القساوسة شهادته بإيمانه²، وهو مشهد أسطوري يماثل حكاية مقتل يحيى بن زكريا على يد الملك هيرودوس، وقد قطع رأسه وظل يتكلم: لا تحل لك³.

نوم أصحاب الكهف

أصحاب الكهف وفق تفسير الرازي، هم جماعة من الشبان آمنوا بالله، وقاموا بين يدي ملكهم دقيانوس الجبار، وقالوا: ربنا رب السموات والأرض؛ وذلك لأنه كان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبت الله هؤلاء الفتية، وصرحوا بالبراءة عن الشركاء والأنداد، وجعلوا الكهف مأوى لهم، فكان الغار حفظا لهم عن العفونة والفساد مدة ثلاثمئة سنة وأكثر، وهم من آيات الله الدالة على عجائب قدرته، وبدائع حكمته، يقلبهم الله سبحانه، كما يقول ابن عباس، لئلا تأكل الأرض لحومهم وتبليهم، ومعهم كلب صيدهم، الذي قال لهم: إنه يحب أحباء الله، فناموا حتى أحرسكم، فطالت شعورهم وأظافرهم، وبقيت عيونهم مفتوحة، وهم نيام، ولهذا السبب لو رآهم الرائي لهرب منهم مرعوبا، وأنامهم الله، وأبقاهم أحياء لا يأكلون ولا يشربون، ثم بعثهم من نومتهم التي تشبه الموت، وكشف أمرهم عندما ذهب أحدهم ليشتري الطعام، وأخرج الدراهم، فقال صاحب الطعام: هذه النقود غير موجودة في هذا اليوم، وإنها موجودة قبل هذا الوقت بمدة طويلة، ودهر داهر؛ فلعلك وجدت كنزا، واختلف الناس فيه، وحملوه إلى ملك البلد، فعلم قصتهم، واستدل الملك بواقعته على صحة البعث للأجساد، فكما حفظ أجسادهم مدة

¹ النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ج2، ص203.

² ينظر: آش: المعجزات، ص112.

³ ينظر: خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، ص86.

ثلاثمة سنة وتسع سنين، كذلك يقدر على حشر الأجساد بعد موتها، ولما وقف الناس على أحوالهم عاد القوم إلى كهفهم، فأماتهم الله، وبنوا على باب الكهف مسجداً، وفي عددهم قال المسلمون: سبعة وثمانهم كلبهم، وهو الحق، ويذكر الرازي أسماءهم: يملixa، ومكسلمينا، ومسلثينا، وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك، وعن يساره، مرنوس، ودبرنوس، وسادنوس، وهؤلاء كانوا من مستشاري الملك، والسابع الراعي، واسم كلبهم قطمير، واختار الرازي أن مدينتهم هي التي يقال لها في زمانه: طرسوس¹.

إن مصدر هذه القصة بتفصيلها لدى المفسرين، اشتهر قبل الإسلام عن السريان واللاتين، بما عرف بقصة النيام السبعة في أفسس، في زمن الاضطهاد الديني للإمبراطور ديسيوس (دقيانوس) عام 250م، حيث لجأ سبعة شبان مسيحيين إلى كهف؛ من أجل تجنب التضحية للآلهة الوثنية، فاحتجزوا هناك، وناموا في الكهف، حتى استيقظوا في عهد ثيودوسيوس الثاني، 408م-450م، وعندما خرج أحدهم ليشترى خبزا، اشتبه به، أنه اكتشف كنزا؛ بسبب عملته القديمة، بعد سؤال الأسقف والنائب عن أصل القطعة النقدية، قادهم الشاب إلى الكهف، ووصل الإمبراطور بعد إبلاغه بخبرهم، قبل أن يعودوا للنوم إلى الأبد، وتم بناء كنيسة في كهفهم، واشتهرت قصتهم في اللغات السريانية واليونانية واللاتينية، ومعظم اللغات الشرقية في القرنين الخامس والسادس ميلادي، وأقدم مخطوطتين نقلت قصتهم باللغة السريانية كانتا للأسقف جاك دو ساروج (يعقوب السروجي) المتوفى 521م².

وفي هذا السياق ينبغي الوقوف على حال المسيحيين الأوائل، خلال القرون الثلاثة، فقد "خرجت السياسة الرومانية عن شريعتها في إطلاق الحرية الدينية لرعاياها، وضنت بالتسامح على الدين المسيحي الجديد منذ ظهوره، ونهضت لمقاومته، واضطهاد أتباعه"³، ففي القرن الأول جعل نيرون من احتراق روما

¹ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 21، ص 98-107.

² ينظر: Sylvain 'Destephen: Prosopographie chrétienne du Bas-Empire، Paris، ACHCB، 2008م، ص 874-876.

³ الطويل، توفيق: الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي، مصر، 1947م، ص 33.

عام 64م، ذريعة لإضرار الحق، وتهيج الشعب ضد المسيحيين، فدخلوا في عنت شديد، وصاروا طعاما للوحوش، وللنيران بعدما يدهنونهم بالقار والشمع، ويحرقونهم أحياء¹.

وكذلك استمر الاضطهاد في القرن الثاني، ليكون عقوبة المسيحي هو الإعدام، ومن شدة التعصب الأعمى الذي اضطرر في نفوس الناس كانوا يعذبون المسيحيين شر تعذيب، فيلقونهم للوحوش الضارية في المدرجات العامة، من أجل أن يستمتعوا في لياليهم بمشاهدة افتراسهم²، وفي القرن الثالث استمر التنكيل حتى بلغ عصر دوقليانوس فهدم كنائسهم وأعدم كتبها المقدسة، وآثار آبائهم، وقرر أن المسيحيين مدنسون، تسقط حقوقهم المدنية، وأمر بتجريعهم العذاب ألوانا، فامتألت السجون بهم، ومزقت أجسامهم بالمخالب الحديدية، وقطعوا إربا، وطرحوا للوحوش، وأحرقوا بالنار، حتى أطلق المسيحيون على عصره (284م-305م) عصر الشهداء³.

وعلى الرغم من كل هذا الاضطهاد فقد ثبتت المسيحيون الأوائل على الإيمان، ولكن الرومان أمام هجمات البرابرة، خففوا الوطأة عن المسيحيين، وأصدروا مرسوما بالتسامح في عام 311م، سمح للمسيحيين باعتناق معتقدتهم مع شرط الاحترام لقوانين البلاد⁴؛ وبذلك تحقق انتصار الإيمان المسيحي بعد ثلاثة قرون وبضع سنين من التنكيل المستطير والاضطهاد العظيم والعذاب الشديد.

من خلال ما توافر من تراث هذه القصة، يتبين؛ أولا أن النبي الكريم سئل عن أصحاب الكهف، وانتظر الوحي يخبره عنها، والسائلون يعلمون عن هذه القصة، ويطلبون المزيد⁵، وهي قصة شائعة في أدب

¹ ينظر: الطويل، توفيق: الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ص34.

² السابق، ص35.

³ ينظر: السابق، ص40. شلبي: المسيحية، ص82-83.

⁴ ينظر: الطويل: الاضطهاد الديني، ص41.

⁵ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م11، ج21، ص83.

المسيحية السريانية قبل الإسلام¹، والقرآن أخبر عن علمهم بها، وقد سألوا عنها النبي؛ ليختبروه،
والسائل عالم بها قبل سؤاله، ولو علم إجمال².

ثانيا القرآن في أمر العدد ذكر أنهم يقولون: ثلاثة وخمسة وسبعة، ونهى الله النبي أن يستفتي أحدا عن
قضية جزئية في القصة، وهي عددهم، أي لا يسأل أحدا عن هذه التفاصيل ولا يستفتي فيها، مظنة
علمهم بها، مكتفيا بعلم مجمل للقصة، قال تعالى: "سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ" وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ
إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا" (الكهف: 22)، بمعنى أنهم يعلمون القصة، مع تفاوت في
بعض جوانبها الروائية، ويستفسرون عنها بحكم أن المسؤول يأتيه وحي الغيب.

ثالثا الكنيسة تعلم أنها قصة نسجت بغرض الوعظ والتبشير والتعليم، ولتعبّر عن أن الله ينصر القلة
المؤمنة من الاضطهاد³، وأن قيامة المسيح من الأموات ممكنة عقلا، لأنه كان الخلاف في المرحلة
الاولى حول قيامته؛ هل هي من موت أم إنعاش من إغماء؟⁴ ومن أجل إثبات حقيقة خلود الروح،
وحشر الأجساد⁵.

رابعا جاء المفسرون، وقدموا التفسير على نفس تفصيل القصة في الاسرائيليات.

خامسا دلالة الكلب، هذا الحيوان الذي شاع عنه في الثقافة الإسلامية، أنه نجس وشيطان، ولا تدخل
الملائكة بيتا فيه كلب، حاز مكانة مرموقة في قصة أصحاب الكهف، حتى بات شخصية محورية، وكأنه

¹ ينظر: تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص126. Destephen. 126 : Prosopographie chrétienne du Bas-Empire.
ص874-876.

² ينظر: السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص505.

³ ينظر: تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص126.

⁴ ينظر: <https://arabic.cnn.com/world/2014/04/20/parini-jesus-easter> : ر
<http://www.arabchurch.com/forums/showthread.php?t=157902>

⁵ ينظر: تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص126. الرازي: التفسير الكبير، م11، ص106.

واحد منهم¹، وقد يُفسَّر أن كلبهم مجرد استعارة للدلالة على الحفظ والحراسة، قراءة أخرى، حكاها أبو عمر الزاهد، غلام ثعلب فعوضا عن (كلبهم) جاءت (كالثهم)، اسم فاعل من كالأ، أي حافظهم، وقال الشهاب: أي حارسهم²، وهو ما يتفق مع ما عرف به الكلب من الحراسة، وصار رمزا في الثقافات القديمة للملاك الحارس، وهو ما جاء في موعظة يعقوب السروجي أقدم المخطوطات التي ذكرت القصة، دون ذكر للكلب، وعوضه كان الملاك الحارس³، وفي معتقدات أخرى دل الكلب على الإله الحارس للموتى، باسم (أنوبيس) حامي الموتى⁴، وشابه دوره في قصة أصحاب الكهف ما جاء في أسطورة هندية، كان فيها إله يهب الحياة ويسلبها، فصحب فتية في الغابة، ونزلوا كهفا، احتموا فيه زمنا من خطر يهددهم، ثم عادوا إلى حياة الواقع⁵.

موت سليمان

فسر الرازي قوله تعالى في موت سليمان: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ" فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ"⁶، "كان سليمان عليه السلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويوما تاما، وفي بعض الأوقات يزيد عليه، وكان له عصا يتكى عليها واقفا بين يدي ربه، ثم في بعض الأوقات كان واقفا على عادته في عبادته إذ توفي، فظن جنوده أنه في العبادة، وبقي كذلك أياما، وتمادى شهورا، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوق، وعلم حاله"⁷.

لقد ظهرت العصا في الأساطير كأداة مقدسة تدل على القوة والملك والحكم:

¹ ينظر: السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص509.

² ينظر: الخطيب، عبد اللطيف: معجم القراءات، ط1، دار سعد الدين، دمشق، 2002م، ج5، ص171.

³ ينظر: القديسون أهل مغارة أفسس -Coptic-Orthodox-Saints-Biography/Coptic-Saints-Story_344.html

⁴ ينظر: تشرني: الديانة المصرية القديمة، ص17.

⁵ ينظر: السعفي: العجيب والغريب، ص512.

⁶ سورة سبأ، الآية: 14.

⁷ الرازي: التفسير الكبير، م13، ج25، ص251.

"الصولجان والتاج والعمامة والعصا

جميعها كانت أمام أنو مودعة في السماء

لم يكن هناك حاكم لشعب عشتار

عند ذلك نزلت الملكية من السماء"¹

وفي أسطورة أخرى:

"أعطني ناموس الألوهية

أعطني عرش الملوكية...

أعطني العصا"².

وتتجلى العصا في أسطورة أخرى دالة على القيادة: "الصولجان السامي وعصا القيادة والرداء الملكي"³، ومردوك تمجد كملك على الكون، وكارع على البشر، فكان "حامل عصا الرعاية المباركة، راعي الرؤوس السوداء وراعي البشر"⁴، وجلجامش الحاكم كان يمسك بيده العصا⁵، وهرميس الذي عرف بأنه مبعوث الآلهة، كان يُصور دائماً، وهو يحمل عصا الرسول⁶، والعصا للرسول تحمل دلالة العلم والحجة⁷ التي عليها يتأسس النظام الجديد، والمملكة المقدسة بتعاليم عصا الرسول المقدسة، وكذلك كانت

¹ الشواف: ديوان الأساطير، ج2، ص490-491.

² السواح: الأسطورة والمعنى، ص120.

³ الشواف: ديوان الأساطير، ج3، ص198.

⁴ السابق، ج4، ص503.

⁵ ينظر: السواح: مغامرة العقل الأولى، ص220.

⁶ ينظر: كامل، مجدي: أشهر الأساطير في التاريخ، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 2003م، ص64.

⁷ ينظر: ابن عربي، محيي الدين: فصوص الحكم، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت. ص210.

العصا في الحضارة المصرية القديمة تدل على السلطة والقوة والرعاية¹، ولا عجب إن مات الملك أو صاحب العرش أن تكسر عصاه²، ويتحطم بعده ملكه الذي صنعه، وقد يتفاوت مكث عرشه على سنته التي خطها من شخص إلى آخر قبل أن تتطرق إليه آفة الملك، وظلت هذه الدلالة للعصا على الملك والعرش في الجاهلية والإسلام، يقول الجاحظ عن شأنها لدى العرب: "لا تفارق أيدي الملوك في مجالسها"³.

علما أن آخر عهد سليمان شهد ثورة للكنعانيين، ولما فشل في القضاء على الثورة استتجد بفرعون مصر شيشياق الأول، وتوفي سليمان عليه السلام سنة 923 قبل الميلاد، بعدما عاشت دولته موحدة إبان حكمه وحكم أبيه، ما يقارب الثمانين عاما، وبعد وفاته انقسم الأسباط إلى قسمين متصارعين على الحكم، ووصار للكنعانيين تأثير عليهم⁴، واشتدت الفتن، وتناوبت مصر الفرعونية ودمشق الآرامية النفوذ على ورثة سليمان عليه السلام⁵، وطرقت الآفات المملكة على عادة سنة الله في الحكم وانتهياره، ولا يكاد ذلك يتخلف⁶.

يد موسى

يقول الرازي في قوله تعالى: "وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ" (الأعراف: 108، الشعراء: 33)، "النزع في اللغة عبارة عن إخراج الشيء عن مكانه، فقوله: "نزع يده" أي أخرجها من جيبه أو من جناحه، بدليل قوله تعالى: "وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ" (النمل: 12)، وقوله: "وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ" (طه: 22)، وقوله: "إِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ"، قال ابن عباس: وكان لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض... ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة، يجتمع الناس

¹ ينظر: تشرني: الديانة المصرية القديمة، ص 25-26، ص 172.

² ينظر: زيعور: الكرامة الصوفية، ص 227.

³ الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1968م، ج 2، ص 12.

⁴ ينظر: محاسنة وزملاؤه: تاريخ مدينة القدس، ص 75.

⁵ ينظر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية: فلسطين تاريخها وقضيتها، المكتبة الجامعية، نابلس، د.ت. ص 7.

⁶ ينظر: ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص 371، 374.

للنظر إليه كما يجتمع النظارة للعجائب"¹، ولما طلب فرعون من موسى آية غير العصا، "أراه يده، ثم أدخلها جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء، يضيء الوادي من شدة بياضها من غير برص، لها شعاع كشعاع الشمس"²، ومع أن البرص لم يذكر في الآيات، بل ذكر (السوء) كما في قوله تعالى: "وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ (النمل: 12)، وقوله سبحانه: "وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" (طه: 22) فإن الرازي مع إقراره أن السوء يعني الرداءة والقبح في كل شيء، جعله كناية عن البرص، وكان جديرا أن يكنى عنه حسب رأيه؛ لأن موسى عليه السلام كان شديد الأدمة، فكان إذا أدخل يده اليمنى في جيبه، وأدخلها تحت إبطه الأيسر، وأخرجها، كانت تشرق مثل البرق، وقيل: مثل الشمس، من غير برص، ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول بلا نور³.

ويروي الرازي في الكرامات ما يناظر هذا الحدث في شأن عصا رجلين من الأنصار، يقول: إن أسيد بن حضير، ورجلا آخر من الأنصار تحدثا عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان، ثم خرجا من عنده، وكانت الليلة شديدة الظلمة، وفي يد كل واحد منهما عصا، فأضاءت عصا أحدهما لهما، حتى مشيا في ضوئها، فلما انفرق بينهما الطريق، أضاءت للآخر عصاه، فمشى في ضوئها حتى بلغ منزله⁴.

ويرفض الرازي من يطرح تأويلا آخر، فيقول: "ومن الملحد من قال: المراد بالثعبان وباليد البيضاء شيء واحد، وهو أن حجة موسى عليه السلام كانت قوية ظاهرة قاهرة، فتلك الحجة من حيث إنها أبطلت أقوال المخالفين، وأظهرت فسادها، كانت كالثعبان العظيم الذي يتلفح حجج المبطلين، ومن حيث كانت ظاهرة في نفسها، وصفت باليد البيضاء، كما يقال في العرف: لفلان يد بيضاء في العلم الفلاني،

¹ الرازي: التفسير الكبير، م7، ج14، ص204.

² السابق، م12، ج24، ص133.

³ ينظر: السابق، م11، ج22، ص31.

⁴ السابق، م11، ج21، ص90.

أي قوة كاملة، ومرتبطة ظاهرة"¹، وهذا التأويل يتفق مع الحديث المشهور الصحيح، الذي قال فيه النبي الكريم: "تركتم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك"².

في حين فسر الرازي قوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ" (الأنبياء: 48)، فقال: "فكان فرقانا إذ كان يفرق به بين الحق والباطل، وكان ضياءً إذ كان لغاية وضوحه، يتوصل به إلى طريق الهدى، وسبل النجاة في معرفة الله تعالى، ومعرفة الشرائع... وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ضياءً بغير واو، وهو حال من الفرقان، وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان، وهو التوراة، وآتيناهم به ضياءً وذكرى للمتقين، والمعنى أنه في نفسه ضياءً وذكرى، أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياءً وذكرى"³.

ومثل هكذا أنوار تحاكي ما يعرف بهالات القديسين المضيئة، كما يشيع في كراماتهم⁴، وكذلك مثل الأشياء التي تضيء في الظلام من غير مصدر ضوء، أو ما يشيع عن رؤية الأنوار على قبور الأولياء والصالحين والعلماء، يراها بعضهم مما يخالف سنن الله الكونية، وتبقى في مجال الروايات لا في الواقع⁵.

رزق مريم

يذهب الرازي في تفسير قوله تعالى: : "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ط قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا ط قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ط إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (آل عمران: 37)، ويرى أن الروايات تواترت بأن زكريا عليه السلام، كان يجد عند مريم فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف

¹ الرازي: التفسير الكبير، م7، ج14، ص204-205.

² الموسوعة الحديثية: <https://www.dorar.net/hadith/sharh/63119> . صحيح الجامع (4369).

³ الرازي: التفسير الكبير، م11، ج22، ص179.

⁴ ينظر: صالح: الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، ص105-106، ص112.

⁵ ينظر: العدوي: الإيمان بين الغيب والخرافة، ص161-162.

في الشتاء، وهو ما أطمع زكريا عليه في حصول الولد من المرأة العقيمة الشبيخة العاقر¹، وينقل الرازي بعض الأقوال التي أتت على تأويل رزق مريم، يقولون: "إنّا لا نسلم أنه كان قد ظهر على مريم شيء من خوارق العادات، بل معنى الآية أن الله تعالى كان قد سبب لها رزقا على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العابدات، فكان زكريا عليه السلام إذا رأى شيئا من ذلك، خاف أنه ربما أتاها ذلك الرزق من وجه لا ينبغي، فكان يسألها عن كيفية الحال"²، ولكن الرازي يرد هذا الاحتمال في التأويل³.

بينما يرى بعضهم أن "قبول الآية للتأويل يبعدنا عن قبول أي تفسير غير معهود واقعا، فيمكن أن يكون هذا الرزق الذي أضيف إلى الله تعالى، من عند أناس قدّروا هذه المرأة الصالحة المتبتلة، فكانوا يأتون لها بشتى احتياجاتها، مما لم يكن زكريا عليه السلام، وهو من كفلها، على علم به"⁴.

ولعل جذر هذا التفسير يعود للأناجيل القبطية، فلما أوقفها أمها، "كانت تطعم في الهيكل مثل حمامة، وكان ملائكة الله يأتون إليها بطعامها من السماء، ولما كانت تسجد في الهيكل، كانت ملائكة الله يخدمونها، وكثيرا ما حدث أنهم كانوا يأتون لها بأثمار من شجرة الحياة، فكانت تأكلها بسعادة"⁵، وهو ما كان مبررا لمرويات كرامات بعض الأولياء، كما يروى في كرامات الحلاج، "أنه كان يخرج للناس فاكهة الشتاء في الصيف، وعكسه، ويمد يده في الهواء، ويعيدها مملوءة دراهم مكتوبا عليها، قل هو الله أحد، ويسميها دراهم القدرة"⁶.

¹ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م4، ج8، ص34.

² السابق، م4، ج8، ص34-35.

³ ينظر: السابق، م4، ج8، ص35. م4، ج8، ص33.

⁴ العدوي: الإيمان بين الغيب والخرافة، ص107.

⁵ تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص135.

⁶ النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ج2، ص44.

عمر نوح

ذهب الرازي إلى تقرير عمر نوح عليه السلام، على أنه تسعمئة وخمسون سنة¹، وردّ قول البعض ممن لم يجز هذا العمر المديد لبني الإنسان في الحياة الدنيا، دون أن يبين لنا كيف تأوّلوا الآية ذات العلاقة، فقال: "قال بعض الأطباء: العمر الإنساني لا يزيد عن مئة وعشرين سنة، والآية تدل على خلاف قولهم، والعقل يوافقها... ثم نقول: لا نزاع بيننا وبينهم؛ لأنهم يقولون: العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مئة وعشرين سنة، ونحن نقول: هذا العمر ليس طبيعياً، بل هو عطاء إلهي، وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة، فضلاً عن مئة أو أكثر"²، ولم يتطرق الرازي، إلى لبث قوم نوح الذين لبث فيهم كم عمّروا، يقول تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ" (العنكبوت: 14).

سنبين استعراضاً كافياً لمعتقدات ما قبل الإسلام، تكشف عن العمر المديد على غير المعتاد للناس ما قبل الطوفان، وحتى لبعض الصالحين وفق الأساطير، وهو ما انتقل للكتاب المقدس العهد القديم.

في الأساطير السومرية نجد صاحب السفينة الذي نجا من الطوفان، هو زيوسودرا، ومعناه "ذو الحياة المديدة"³، وعثر في قائمة الملوك السومريين على حكام تطاولت بهم الأعمار، فقد "حكم أوليم في أريدو 28800 سنة، وامتد حكم ألالجار 36000 سنة، وحكم البلاد ملكان آخران مدة 64800 سنة، وبعد أن هجرت أريدو انتقل الحكم إلى مدينة باد-تيرا؛ حيث حكم اينمين لوانا مدة 43200 سنة، وتتص قائمة أن عدد الملوك الذين حكموا في عهد ما قبل الطوفان بلغ ثمانية، حكموا في خمس مدن لمدة 241200 سنة"⁴؛ وهنا "نلاحظ القوم وقد اعتقدوا أن ملوكهم السالفين قد عاشوا أعماراً طويلة إلى حد خيالي، ربما كتعظيم لشأنهم، وتكريماً وتقديساً... وأغلب الظن أن مثل هذه الأرقام إنما تعكس فكرة

¹ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م 13، ج 25، ص 42.

² السابق، م 13، ج 25، ص 43.

³ الشواف: ديوان الأساطير، ج 2، ص 277.

⁴ كلشكوف: الحياة الروحية في بابل، ط 1، ترجمة: عدنان عاكف حموي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1995م، ص 25.

شائعة عند أكثر الأمم القديمة، وهي أن الإنسان كان في قديم الزمان يتمتع بعمر طويل، وصفات جسدية خارقة¹، وهذه المبالغات السومرية في الأعمار نجد في التوراة نظائر لها، ولكن بقيم أقل بكثير، فجاءت الأعمار في سفر التكوين على النحو الآتي: آدم عاش 930 سنة، شيث 912 سنة، نوح 950 سنة، قينان 910 سنة، مهللئيل 895 سنة، يارد 962 سنة، متوشالحو 969 سنة، نوح 950 سنة².

كما نجد في كنز أربا الكتاب المقدس للمندائية الصابئة عمر رام، قبل نوح، قد عاش ألف عام³، ولكن بعد طوفان نوح أخذت الأعمار تتناقص إلى أن بلغت في الأعلى 120 سنة، "فقال الرب: لا يدين روبي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر، وتكون أيامه مئة وعشرين سنة"⁴، وهو عمر موسى عليه السلام، الذي أصبح القاعدة العامة لطول عمر الإنسان الحالي⁵.

و"ما يفسر تناقص الأعمار بعد الطوفان، ما عثر عليه في هامش إحدى نسخ قوائم لارسا؛ حيث يقول الناسخ: "جاء الطوفان بعد أن هبطت الملكية من الأعالي"، فالناسخ قد كتب أعمار الملوك ما قبل الطوفان، وهي - كما سبق ذكره - مديدة جدا، وظهر له الفرق بين التاريخ الذي يدونه، وبين الواقع المعاش، فعنّ له تبرير ذلك على الهامش بأن أعمار الملوك هبطت بعد الطوفان عما كانت عليه قبله، وتظل هذه الأعمار الطوال مثار جدل بين مصدق ومكذب ومتأول، والذي أذهب إليه في هذا البحث أن هذه الأعمار، هي أعمار ملكية مع بعض التضخيم، وليست أعمار أشخاص، بمعنى أنها عمر سلالة الملك الحاكم، أو بقاء شريعته بين قومه قبل أن تتسخ بشريعة تالية، أو تزول بملكية أخرى، أو أنها سنون غير سنين، تخضع لحساب مغاير⁶.

وفي أساطير ما بين النهرين، نجد اعتقادا بوجود أعمار أكثر من المعتاد:

¹ القمني، سيد: الأسطورة والتراث، ط2، سينا للنشر، القاهرة، 1993م، ص166-167.

² ينظر: سفر التكوين، الإصحاح: 5.

³ ينظر: كنز أربا اليمين، ص26.

⁴ التكوين 6: 3.

⁵ ينظر: عسكر، قصي الشيخ: أساطير العرب قبل الإسلام، ط1، دار معد، دمشق، 2007م، ص143.

⁶ خلف: الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير، ص119.

"في ذلك الوقت كان البشر

يصلون إلى مئة عام

وعندما كانوا يصلون إلى هذا العمر المتقدم

كان يتبقى لهم مئة عام أخرى"¹

ولكن بعد الطوفان لم تطل أعمار البشر، تقول الأسطورة:

"لم تعط للبشر أيام مديدة، هذا هو

الحال ولا جدال في ذلك

أين الملك آلولو الذي حكم 3600 سنة؟

أين الملك إيتانا الذي صعد إلى السماء؟

أين جلامش العظيم الذي سعى إلى

الحياة الأبدية مثل زيوسودرا..."²

ولأجل تطويل العمر، تقدم الأسطورة نصيحة:

"التقوى تولد السعادة

وتقديم القرابين يطيل العمر

والصلاة تكفر الذنوب"³

¹ الشواف: ديوان الأساطير، ج3، ص44-45.

² السابق، ج4، ص441.

³ جمعية التجديد الثقافي الاجتماعي، قسم الدراسات والبحوث: الأسطورة توثيق حضاري، ط1، دار كيوان، دمشق، 2009م، ص61.

وفي تعاليمهم الدينية نجد "خشية الآلهة وعبادتها، وإقامة المعابد لها، واتباع أوامرها، كلها أمور من شأنها إطالة حياة صاحبها، والمد في عمره: إن القرايين تمد في العمر... وخشية الأنوناكي تطيل أيامك على هذه الأرض"¹.

ومن أساطير الإغريق أن سلالة مقدسة خالية من الأمراض والهرم، يعرفون بالهيبوربيين، يمكن لهم أن يعيشوا ألف سنة، وهم لا يعرفون العمل ولا الحروب، ويمضون وقتهم بالرقص والعزف على القيثارة والناي²، وبلغ العمر الطويل بنستور أحد المحاربين مع الآكيين ضد طروادة إلى أن عمّر ثلاثة أجيال من الناس³.

وتذكر الأفستا الزردشتية الفارسية، مكانا من أرض إيرانيغ، خلقه أورمازد أفضل من كافة الأماكن والمناطق الأخرى، يعيش فيه الناس ثلاثمئة سنة، وقلما يعانون من الأمراض والمصائب، وقانونهم هو الخير والصلاح، ومعتقدهم هو المذهب الأساسي للمازدياسنيين، وتبلغ أعمار الأبقار والأغنام فيه 150 عاما⁴.

وفي الأساطير الهندية نجد أسطورة كمال البدايات، تعرض للأعمار الطوال جدا، فكان الإنسان في البداية بقامة طولها ستة أميال، وتدوم حياته مئة ألف فُرْبَا (الفربا تساوي 8400000 سنة)، لكنه في نهاية الدورة لا تكاد تبلغ قامته سبعة أذرع (مقاس 50سم)، ولا يتجاوز عمره مئة سنة، ويلجّ البوذيون أيضا على تناقص هائل يطرأ على عمر الإنسان؛ من 80000 سنة، بل أكثر في مطلع الدورة، إلى 10 سنوات في نهايتها⁵، وذلك الزمن العجيب تخلله العجب في كل شيء حسب معتقد الجاينية، فالشجر يشع

¹ السواح: مغامرة العقل الأولى، ص295.

² ينظر: إلياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج1، ص333.

³ ينظر: غريمال: الميتولوجيا اليونانية، ص15.

⁴ عبد الرحمن: الأفستا، ص792، ص783.

⁵ ينظر: إلياد: مظاهر الأسطورة، ص61.

نورا ساطعا، ومذاق مياه المحيطات كمذاق النبيذ، وطعم التراب أكثر حلاوة من طعم السكر¹، وفي أدب ما بعد الفيدا نجد رجالا يعيشون آلاف السنين، في حين وضعت الفيدا حدا لعمر الإنسان في حدود مئة عام²، إن أصوات الحنين إلى الخلود المفقود، تسمع في أساطير العصر الذهبي³، لتمتد إلى معتقدات الناس، فتقدمها كواقع منزوع الخلود، من خلال الاعتقاد بوجود الأعمار الطويلة في بعض الأزمنة والأمكنة، ولبعض الناس.

وفي الأساطير العربية الجاهلية نجد من يعتقد أن عمر قس بن ساعدة الإيادي، طال حتى روي أنه عاصر حوارى نوح⁴، و"النضر بن دهمان عمّر حتى خرف، ثم عاد شابا يافعا، فعاد بياض شعره سوادا، ونبتت أسنانه بعد الدرد"⁵، و"أن أبا كرب أسعد الحميري، كان ملكا كاهنا، يروى عنه أنه عاش ثلاثمئة سنة"⁶.

في حين نجد الأعمار في الواقع بخلاف ذلك، وبعيدة عن الأعمار الأسطورية في مرويّات الأساطير، فمع تقدم علم الطب وتحسن النظام الغذائي، تم رفع الأجل المتوقع في القرن العشرين بالولايات المتحدة من "48,3 سنة للرجال، و46,3 سنة للنساء عام 1900م، إلى 74,2 سنة للرجال، و79,9 سنة للنساء عام 2000م"⁷، وفي بدايات القرن الثامن عشر أوضح الديموغرافي الفرنسي جين فوراستيه أن بلوغ عمر الثانية والخمسين كان يعتبر إنجازا؛ لأن قلة ضئيلة فقط من الناس كانوا يعيشون حتى هذا العمر، وأن مثل هذا الشخص كان يعتبر نفسه على حق، أما في تسعينات القرن العشرين فقد كان لأكثر من 83%،

¹ ينظر: ألبيديل: سحر الأساطير، ص254.

² ينظر: العجمي: صحف إبراهيم، ص148.

³ ينظر: ألبيديل: سحر الأساطير، ص268.

⁴ ينظر: عسكر: أساطير العرب قبل الإسلام، ص145.

⁵ السابق، ص148.

⁶ زكي، أحمد كمال: الأساطير دراسة حضارية مقارنة، ط2، دار العودة، بيروت، 1979م. ص102.

⁷ فوكوياما، فرنسيس: نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية، ط1، ترجمة: أحمد مستجير، سطور، مصر، 2002م، ص100.

من العشيرة أن تتوقع أن تحيا حتى عمر 65 سنة، ولأكثر من 28% أن يظل حيا حتى عمر 85 سنة¹، وقد زاد التقدم الطبي الحديث في الحياة كمّا ونوعاً².

ومما ينبغي لفت الانتباه إليه أن الأدب العربي ميّز بين المديح والثناء؛ باعتبار أن المديح ذكر مناقب الحي، والثناء ذكر مناقب الميت³، إلا أنه وصف ذكر فضائل النبي وشمائله بالمديح بعد وفاته عليه الصلاة والسلام؛ "وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء، ولكنه في الرسول يسمى مدحا، كأنهم لحظوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم موصول الحياة، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء"⁴، بمعنى أن النبي ما زال حيا زهاء 1400 سنة، وسيستمر حتى نهاية الحياة الدنيا، بحسب هذا الاعتبار، في حين روي عن النبي الكريم بإسناد صحيح في معجم الطبراني الكبير أن رجلا قال: "يا رسول الله، أنبيّ كان آدم؟" قال: "نعم"، قال: كم كان بينه وبين نوح وإبراهيم؟ قال: "عشرة قرون". قال: "كم كان بين نوح وإبراهيم؟" قال: "عشرة قرون". ويذكر الطبراني مثله في الأوسط، ويرويه الحاكم في المستدرک، وبعضه في صحيح ابن حبان⁵.

¹ ينظر: فوكوياما، فرنسيس: نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية، ص105.

² ينظر: السابق، ص112، ص114.

³ ينظر: ابن رشيّق، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2001م، ج2، ص166.

⁴ مبارك، زكي: المدائح النبوية في الأدب العربي، دار المحجة البيضاء، بيروت، د.ت، ص17.

⁵ ينظر: المكتبة الإسلامية، ملنقى أهل الحديث: <https://bit.ly/3CkbN2f>. أخرجه الطبراني في الأوسط (128/1)، رقم (403)، قال الهيثمي (196/1) : رجاله رجال الصحيح.

الفصل الثالث

الأسطورة في الحيوان

تلازم وجود الإنسان مع الحيوان، وتداخلت العلاقة بينهما، وقد شكل الحيوان مخاطر على الإنسان من الحشرات إلى المفترسات، واستطاع الإنسان الاستفادة من الحيوانات في مطعمه وملبسه ومركبه من خلال الصيد والتدجين، وما زالت الحيوانات في علاقة تلازمية مع الإنسان، يبدو لا فكاك عنها، سواء أكانت حيوانات برية أو بحرية أو جوية، وسواء أكانت مرئية أم مجهرية، وتتردد هذه العلاقة بين الخير والشر، والمنفعة والضرر، ويستخدم الإنسان معرفته العلمية المتراكمة عن الحيوانات فيما يعود عليه بالفائدة.

وفي ظل هذه العلاقة الوجودية الترابطية بين الإنسان والحيوان، نشأت تصورات كثيرة عن الحيوانات، كاعتقاد أن الإنسان تولد منها، ويعود في أصوله إليها¹، حتى تحولت إلى آلهة في معتقده، مروراً بتقديسها وعبادتها²، وهذه ما زالت موجودة في بعض الأمم المعاصرة كالهند، وقد دخلت هذه العظمة في الحيوانات لمعتقد الإنسان "نظراً لقدراتها المتفوقة التي حرم منها"³، وشكلت في معتقدات أسلاف العرب ما يعرف بالطوطمية، فحملت بعض قبائلهم أسماء الحيوانات، مثل؛ أسد، وثور، وثعلبة، ونمر؛ وذلك لأنهم أن في هذه الحيوانات قوى خفية كثيرة⁴، واعتقدوا أن روح الميت تخرج في صورة طائر⁵.

¹ ينظر: ديمترييف، يوري: الإنسان والحيوان من الأسطورة وطقوس تقديس الحيوانات وعبادتها إلى داروين وحماية البيئة والاستثمار الأمثل لقوى الطبيعة الحية، ط1، ترجمة: محمد عبود، دار النمير، دمشق، 1993م، ص26.

² ينظر: السابق، ص31-35. تشرني: الديانة المصرية القديمة، ص14-17. غريب: أساطير الإغريق والرومان، ص10.

³ عبد الحكيم: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، ص51.

⁴ ينظر: عسكر: أساطير العرب قبل الإسلام، ص174.

⁵ ينظر: نعمة، حسن: ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994م، ص85.

وإزاء هذا التقديس الذي حظيت به الحيوانات بسبب بعض القدرات الفائقة التي يفتقدها الإنسان، خلع عليها بعض خصائصه، وخاصة التكلم، وقد تمكنت من تكليم الإنسان، وكثرت روايات تقويل الحيوانات، بل ومشاركته في علوم الغيب¹، وعلوم الحكمة².

في أسطورة رافدية نجد هذا النمط من تقويل الحيوانات:

"هكذا تكلمت الكلبة، الأم مفتخرة: أن يكون لي

جراء ذوي وبر أبرش أو أرقط فأنا

أحب صغاري

...والذئب العاشر الذي كان شرها

قال: أنا أقوم بالقسمة...

مشى الثعلب...

فقال له: هل أوجعتك...

هكذا يتكلم السيد القرد: أور هي مدينة خلابة...³

وفي أسطورة أخرى:

"الماشماش يتوجه إلى البقرة، ويتحدث إليها

كما لو كانت كائنا بشريا

¹ ينظر: خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، ص112.

² ينظر: خان، محمد عبد المعيد: الأساطير العربية قبل الإسلام، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م، ص39.

³ الشواف: ديوان الأساطير، ج3، ص365-366.

أيتها البقرة سألها من الذي يأكل زبدتك

من يشرب حليبك؟

نيدابا تأكل زبدتي أجابت

نيدابا تشرب حليبي...¹

وحكاية الحيوانات ومسارها طويل؛ من سومر إلى أحيقار ولقمان، ومن كليلة ودمنة إلى لافونتين، نجدها في أوضاع بشرية، نتكلم بالحكم والأمثال، وتصدر الأحكام والانتقادات².

في هذا الفصل سأعرض ما تسلل من أساطير الحيوانات إلى التفسير، وسيتبدى من خلاله تفسير إحياء طيور إبراهيم، وحوث موسى، وحوث يونس، وهدهد سليمان المتكلم بحكمة ودين، وتسبيح الطير، وتكلم الحيوانات بالعلم والعرفان.

طيور إبراهيم

قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أُولَٰمُ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة: 260)، يقول الرازي في الآية: "قال الحسن والضحاك وقتادة وعطاء وابن جريج: إنه رأى جيفة مطروحة في شط البحر، فإذا مد البحر أكل منها دواب البحر، وإذا جزر البحر جاءت السباع فأكلت، وإذا ذهبت السباع جاءت الطيور فأكلت وطارت، فقال إبراهيم: رب أرنى

¹ الشواف: ديوان الأساطير، ج4، ص456.

² ينظر: السابق، ص425-430.

كيف تجمع أجزاء الحيوان من بطون السباع والطيور ودواب البحر، فقيل: أو لم تؤمن؟ قال بلى، ولكن المطلوب من السؤال أن يصير العلم بالاستدلال ضروريا¹.

ويرى الرازي جهل من زعم أن إبراهيم كان شاكاً في المعاد وإحياء الموتى، ومن يشك في قدرة الله كيف يعرف نبوة نفسه؟، ولكن "ليطمئن قلبي" هو كلام عارف طالب لمزيد اليقين، وأما الاستفهام في "أولم تؤمن" فهو استفهام تقرير²، وينقل عن المفسرين أنواع الطير الأربعة، "قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخذ طاوساً ونسراً وغباباً وديكاً، وفي قول مجاهد وابن زيد رضي الله عنهما: حمامة بدل النسر"³، ثم "ذبح الطيور وجعلها قطعة قطعة، ووضع على رأس كل جبل قطعة مختلفة، ثم دعاها، طار كل جزء إلى مشاكله، فقيل له كما طار كل جزء إلى مشاكله كذا يوم القيامة، يطير كل جزء إلى مشاكله، حتى تتألف الأبدان، وتتصل به الأرواح"⁴.

ويرى الرازي إجماع المفسرين على "أن إبراهيم قطع أعضائها ولحومها وریشها ودماءها، وخط بعضها على بعض"⁵، ومع أن أمر الذبح والنقطيع لم يرد في نص الآية، لكن المفسرين جعلوه بطريقة افتراض الحذف، وتغيير دلالة اللفظ، فكلمة "صرهن" في دلالتها تعني الإمالة، كما قال: "قرأ حمزة "قصرهن إليك" بكسر الصاد، والباقون بضم الصاد، أما الضم، ففيه قولان؛ الأول: أن من صرت الشيء أصوره إذا أملت إليه، ورجل أصور، أي مائل العنق، ويقال: صار فلان إلى كذا، إذا قال به، ومال إليه، وعلى هذا التفسير يحصل في الكلام محذوف، كأنه قيل: أملهن إليك وقطعن، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، فحذف الجملة التي هي قطعهن لدلالة الكلام عليه... والقول الثاني: وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد، "صرهن إليك" معناه قطعهن، يقال: صار الشيء يصوره

¹ الرازي: التفسير الكبير، م4، ج7، ص42.

² ينظر: السابق، م4، ج7، ص44.

³ ينظر: السابق، م4، ج7، ص44.

⁴ السابق، م4، ج7، ص45.

⁵ السابق، م4، ج7، ص46.

صوراً، إذ قطعه، قال رؤبة يصف خصماً ألد: صرناه بالحكم، أي قطعناه، وعلى هذا القول لا يحتاج إلى الإضمار، وأما قراءة حمزة بكسر الصاد، فقد فسر هذه الكلمة أيضاً تارة بالإمالة، وأخرى بالتقطيع، أما الإمالة فقال الفراء: هذه لغة هذيل وسليم: صار به يصيره إذا أماته، وقال الأخفش وغيره "صرهن" بكسر الصاد: قطعهن. يقال: صار به يصيره إذا قطعه، قال الفراء: أظن أن ذلك مقلوب من صرى يصري إذا قطع، فقدمت ياؤها، كما قالوا: عثا وعاث، قال المبرد: وهذا لا يصح، لأن كل واحد من هذين اللفظين أصل في نفسه مستقل بذاته، فلا يجوز جعل أحدهما فرعاً عن الآخر¹.

ولكن الرازي ينقل رأياً للمفسر أبي مسلم الذي وصفه في موضع آخر من كتابه بـ"حسن الكلام في التفسير، كثير الغوص على الدقائق واللطائف"²، قد أنكر أن يكون من معاني "صرهن" التقطيع، فقال: "الأول: أن المشهور في اللغة في قوله "صرهن"؛ أملهن، وأما التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدل عليه، فكان إدراجها في الآية إلحاقاً لزيادة بالآية، لم يدل الدليل عليها، وأنه لا يجوز، والثاني: أنه لو كان المراد بصرهن قطعهن، لم يقل إليك، فإن ذلك لا يتعدى بالي، وإنما يتعدى بهذا الحرف، إذا كان بمعنى الإمالة"³، وأما تفسير كون الطير يأتي سعياً لا طيراناً، فيعمل الرازي ذلك، فيقول: "قيل: عدوا ومشياً على أرجلهم، لأن ذلك أبلغ في الحجة، وقيل: طيراناً، وليس يصح، لأنه لا يقال للطير إذا طار: سعى، ومنهم من أجاب عنه بأن السعي هو الاشتداد في الحركة، فإن كانت الحركة طيراناً فالسعي فيها هو الاشتداد في تلك الحركة"⁴.

وعرض الرازي لعدد الجبال التي وضع عليها الخليط المقطع من الطيور، وملخص هذه القصة، حسب المفسرين، أن إبراهيم عليه السلام "أمرَ بذبحها ونتف ريشها وتقطيعها جزءاً جزءاً، وخلط دمائها ولحومها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال؛ على كل جبل ربعاً من كل

¹ الرازي: التفسير الكبير، م، 4، ج، 7، ص 45-46.

² السابق، م، 4، ج، 8، ص 45.

³ السابق، م، 4، ج، 7، ص 46.

⁴ السابق، م، 4، ج، 7، ص 47.

طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله تعالى، ثم أخذ كل جزء يطير إلى الآخر، حتى تكاملت الجثث، ثم أقبلت كل جثة إلى رأسها، وانضم كل رأس إلى جثته، وصار الكل أحياء بإذن الله تعالى¹.

ولأهل التصوف رأي، نقله عنهم الرازي، فقال: "على لسان أهل التصوف أن المراد من الموتى، القلوب المحجوبة عن أنوار المكاشفات والتجلي، والإحياء عبارة عن حصول ذلك التجلي والأنوار الإلهية، فقلوه: "أرني كيف تحيي الموتى"، طلب لذلك التجلي والمكاشفات².

إن الطير في القرآن والحديث النبوي ولدى العرب، له دلالة على السمو والارتفاع إلى السماء التي هي مكان الطهر والقداسة، ولذلك وجدنا إبراهيم نفسه تحققت له الهداية بالنظر في ملكوت السموات، "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ" (الأنعام: 75)، ولما مثل الله للهداية جعلها بالارتفاع، وجعل الضلالة بالنزول إلى الأرض، قال تعالى: "وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ³ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ" (الأعراف: 175، 176).

وقال سبحانه عن ما تكسبه كل نفس فترتفع به إلى السموات، وتحاسب عليه، بأنه طائر³: "وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ⁴ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا" (الإسراء: 13)، كما صور الحديث النبوي المؤمنين المتوكلين بالطير⁴، وجعل الشهداء في حواصل طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح في الجنة حيث شاءت⁵، كذلك جعل من يدخلون الجنة بمثل أفئدة الطير⁶، فيكون الطير للدلالة على القلوب التي لا تخلد إلى الأرض، وإنما تتطلع إلى السماء، وتبحث عن الخالق، ولذلك استبعد

¹ الرازي: التفسير الكبير، م4، ج7، ص47.

² السابق، م4، ج7، ص43.

³ ينظر: السابق، م10، ج20، ص170.

⁴ ينظر: النووي: رياض الصالحين، ص73.

⁵ ينظر: النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ط1، دار الثقافة العربية، بيروت، 1930م، ج13، ص31.

⁶ ينظر: النووي: رياض الصالحين، ص71.

الحيوانات الأخرى كالحمير التي مثلها بالكافرين¹، والحمار الذي وصف به من حُمِلَ التوراة ثم لم يحملها²، والكلب الذي مثل به لمن ارتد للعالم بعد الإيمان³، إلى غير ذلك من حيوانات، وكثر في العرب تسمية "الخير والشر بالطائر، تسمية للشيء باسم لازمته، ونظيره قوله تعالى في سورة يس: "قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ" (يس: 18)، إلى قوله: "قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ" (يس: 19)⁴.

وقال أبو عبيدة: "الطائر عند العرب الحظ"⁵، وقد فطن البعض لهذا التخصيص بالطير، فجعله طير الروح الذي يرتفع إلى هواء الربوبية في صفاء عالم القدس⁶، وخص الطير من جملة الحيوانات؛ لأن الطيران يكون في السماء، والارتفاع في الهواء، والخليل كانت همته العلو والوصول إلى الملكوت، والطير مشاكل لهمة⁷، واستمر مثل هذا التمثيل، فصوروا الأرواح الخيرة طائفة ذات أجنحة، ورمزوا بالطير للروح؛ لأنه خفيف سريع التنقل، ولأنه سماوي⁸.

وأما تعين الطير بالعدد أربعة، فيتجلى من قوله تعالى عن إغواء الشيطان لعباد الله: "ثُمَّ لَآتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ⁹ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ" (الأعراف: 17)؛ من بين أيديهم أي الدنيا أو الشهوة، ومن خلفهم الغفلة أو الغرور، وعن أيمنهم القوة أو وهم امتلاك الهداية، وعن شمائلهم الضعف أو اعتقادات الزيغ وأعمال الشر، علماً أن في دلالة الجهات الأربعة للضلال آراء كثيرة⁹، وقد ذهب الرازي إلى تفسير الطيور الأربعة بعدما عينها المفسرون، فقال: "الطاوس إشارة إلى

¹ قال تعالى: "كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَفْرَغَةٌ"، سورة المدثر، الآية: 50.

² قال تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا¹⁰ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ¹¹ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"، سورة الجمعة، الآية: 5.

³ قال تعالى: "وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ¹² فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثُ¹³ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا"، سورة الأعراف، الآية: 176.

⁴ الرازي: التفسير الكبير، م، 10، ج، 20، ص 169.

⁵ السابق، م، 10، ج، 20، ص 170.

⁶ ينظر: السابق، م، 4، ج، 7، ص 45.

⁷ ينظر: السابق، م، 4، ج، 7، ص 44-45.

⁸ ينظر: طريه، جرجي أنطونيوس: الوجدية وأثرها في الأندلس، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م، ص 255.

⁹ ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م، 7، ج، 14، ص 43-45.

ما في الإنسان من حب الزينة والجاه والترفع... والنسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل، والديك إشارة إلى شدة الشغف بقضاء الشهوة من الفرج، والغراب إشارة إلى شدة الحرص على الجمع والطلب، فإن من حرص الغراب أنه يطير بالليل، ويخرج بالنهار في غاية البرد للطلب، والإشارة فيه إلى أن الإنسان ما لم يسع في قتل شهوة النفس والفرج، وفي إبطال الحرص، وإبطال التزين للخلق، لم يجد في قلبه روحاً وراحة من نور جلال الله¹.

ويرى أبو مسلم في عودة الضمير (هنّ) على الطيور الأربعة، دونما ذكر للتقطيع أو عودة على أجزائهن، من قوله تعالى: "فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا"²، ينقل الرازي عنه: "الضمير في قوله: "ثم ادعهن"، عائد إليها لا إلى أجزائها، وإذا كانت الأجزاء متفرقة متفاصلة، وكان الموضوع على كل جبل بعض تلك الأجزاء، يلزم أن يكون الضمير عائداً إلى تلك الأجزاء لا إليها، وهو خلاف الظاهر، وأيضا الضمير في قوله: "يأتينك سعياً"، عائداً إليها لا إلى أجزائها، وعلى قولكم إذا سعى بعض الأجزاء إلى بعض كان الضمير في "يأتينك" عائداً إلى أجزائها لا إليها"³.

إن استعارة الطيور، ظلت مستمرة منذ الحضارة الرافدية حتى المصرية مرورا بالعرب في زمن التنزيل الحكيم، ففي أسطورة أكادية تتحدث عن العود الأبدي، فنقول:

"إلى الدار التي لا يرجع منها الداخل

إلى الدرب الذي لا يقود صاحبه من حيث أتى

إلى المكان الذي لا يرى سكانه نورا ولا ضياء

¹ الرازي: التفسير الكبير، م، 4، ج، 7، ص 45.

² سورة البقرة، الآية: 260.

³ الرازي: التفسير الكبير، م، 4، ج، 7، ص 46.

حيث الغبار طعامهم والتراب معاشهم

يسبحون في الظلام فلا بصيص ولا شعاع

عليهم أجنحة تتقلهم كالطيور

بين أرجاء مسكنهم...¹

وكان الطير في بابل رمزا للتعبير عن المصير الذي يرافق الإنسان، والذي هو جوهر كل إنسان، ومستقبله المقدر من قبل الآلهة²، وكذلك في الحضارة المصرية رُمز للروح بطائر على هيئة صقر برأس آدمي³، وقد اتخذت المسيحية طائر الحمامة رمزا للروح المقدس⁴، وفي التصور الصوفي اللاهوتي اتخذ رمزا للآلهة⁵.

حوت موسى

ذهب الرازي في تفسيره لحوت موسى عليه السلام من قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا، فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا، قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا" (الكهف: 60-65)، ذهب إلى أنه كان حوتا أو سمكة ميتة، لغرض الأكل، ولكنه في ظرف غير عادي، صار حيا، وانطلق من فوق الصخرة إلى البحر بطريقة عجيبة، زاعما أن صيرورة الحوت حيا علامة وجود

¹ السواح: مغامرة العقل الأولى، ص335-336.

² ينظر: كلشوف: الحياة الروحية في بابل، ص35-37.

³ ينظر: بدج، والس: برت إم هرو كتاب الموتى الفرعوني، ط1، ترجمة: فيليب عطية، مطبعة مديبولي، القاهرة، 1988م، ص40، ص75، 80.

⁴ ينظر: كاميل: قوة الأسطورة، ص254.

⁵ ينظر: العجمي: صحف إبراهيم، ص23.

العبد الصالح العالم قرب ذلك المكان، يقول: "الروايات تدل على أنه تعالى بين لموسى عليه السلام أن هذا العالم موضعه مجمع البحرين، إلا أنه تعالى جعل انقلاب الحوت حيا علامة على مسكنه المعين، كمن يطلب إنسانا فيقال له: إن موضعه محلة كذا من الري، فإذا انتهيت إلى المحلة فسل فلانا عن داره، وأين ما ذهب بك فاتبعه، فإنك تصل إليه، فكذا ههنا، قيل له: إن موضعه مجمع البحرين، فإذا وصلت إليه، رأيت الحوت انقلاب حيا، وطفر إلى البحر، فيحتمل أنه قيل له: فهناك موضعه، ويحتمل أنه قيل له: فاذهب على موافقة ذهاب ذلك الحوت، فإنك تجده، إذا عرفت هذا، فنقول: إن موسى وفتاه لما بلغا مجمع بينهما طفرت السمكة إلى البحر، وسارت، وفي كيفية طفرها روايات أيضا، قيل: إن الفتى كان يغسل السمكة؛ لأنها كانت مملحة، فطفرت، وسارت، وقيل: إن يوشع توضأ في ذلك المكان، فانتضح الماء على الحوت المالح، فعاش، ووثب في الماء، وقيل: انفجرت هناك عين من الجنة، ووصلت قطرات من تلك العين إلى السمكة، فحييت، وطفرت إلى البحر، فهذا هو الكلام في صفة الحوت"¹. ومع جعل الرازي حياة الحوت الميت والمملح علامة بلوغ هدف موسى وفتاه.

إلا أن الفتى المصاحب لموسى (يوشع) كما ذهب أكثر المفسرين²، مع رؤيته لهذه العلامة العجيبة، قد نسي إخبار موسى بوقوعها، على الرغم مما تثيره من دهشة، فانقلاب الحوت الميت حيا، أمر ليس بالسهولة نسيانه، ولكن الرازي برر ذلك، فقال: "المراد من قوله: "نسيا حوتهما" أنهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول إلى المطلوب، فإن قيل: انقلاب السمكة المالحة حية حالة عجيبة، فلما جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلا على الوصول إلى المطلوب، فكيف يعقل حصول النسيان في هذا المعنى؟ أجاب العلماء عنه بأن (يوشع) كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى عليه السلام كثيرا، فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم، فجاز حصول النسيان، وعندي فيه جواب آخر، وهو أن موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه، أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 21، ص 147.

² ينظر: السابق، م 11، ج 21، ص 145.

الضروري تنبيهها لموسى عليه السلام على أن العلم لا يحصل إلا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر¹، متجاهلا الرازي بتفسيره نص الآية على أن الذي أنساه الشيطان وليس الله سبحانه!

وفي تأويل "اتخذ سبيله في البحر سربا/عجبا"، يقول: "ففيه وجوه؛ الأول: أن يكون التقدير سرب في البحر سربا، إلا أنه أقيم قوله فاتخذ مقام قوله سرب، والسرب هو الذهاب، ومنه قوله: "وسارب بالنهار" (الرعد: 10)، الثاني: أن الله تعالى أمسك إجراء الماء على البحر، وجعله كالطاق والكوة، حتى سرى الحوت فيه... وقوله "عجبا" صفة لمصدر محذوف، كأنه قيل: واتخذ سبيله في البحر اتخذا عجبا، ووجه كونه عجبا انقلابه من المكمل، وصيرورته حيا، وإلقاء نفسه في البحر على غفلة منهما، والثاني: أن يكون المراد منه ما ذكرنا أنه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب، الثالث: قيل: إنه تم الكلام عند قوله: "واتخذ سبيله في البحر"، ثم قال بعده: عجبا، والمقصود منه تعجبه من تلك العجيبية التي رآها، ومن نسيانه لها، وقيل: إن قوله عجبا حكاية لتعجب موسى، وهو ليس بقوله²، ويجدر الذكر أن الرازي نقل أن "من الناس من قال: البحران موسى والخضر؛ لأنهما كانا بحري العلم"³.

مثل الحوت عبر التاريخ البشري ثنائية الخير والشر، فهو الشيطان، ورمز لحيل الشرير والفساد تارة، وفاعل الخير الذي ينقذ الإنسان من الغرق، لأن البحر الذي يعيش فيه هو رمز الموت، تارة أخرى⁴، وكان لدى شعوب كثير في القديم إلها من آلهة البحر، وهو في الميثولوجيا والأساطير العربية، والحضارات السامية، وفي المعتقدات السماوية، غالبا ما يدل هذا المخلوق على الانبعاث، فهو في قصة يونس، قد النقمه بسبب خطيئة اقترفها، ثم أنجاه الله منه بالتوبة، فكان له حياة من الغرق حينما لفظه على الشاطئ، وفي قصة موسى ارتبط بالحياة الجديدة، حين عاد الحوت إلى الماء بعد أن كان معدا

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 21، ص 147-148.

² السابق، م 11، ج 21، ص 148.

³ السابق، م 11، ج 21، ص 147.

⁴ ينظر: سيرنج، فيليب: الرموز في الفن الأديان الحياة، ط 1، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق، 1992م، ص 216-218. السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص 67، ص 127.

للطعام، وفي المعتقدات الشعبية ظهر أيضا بثنائية الموت والحياة في أسطورة الكسوف التي فسّرت على أنه ابتلاع الحوت للقمر، ثم تعود الحياة له بعد أن يتركه الحوت بسبب أداء الناس لطقوس أسطورية، تساعد القمر في التخلص من الحوت، ومثل التوبة التي خلصت يونس من بطنه، فكان الحوت رمز الانبعاث لعودة البطل ولعودة القمر وللتجدد والاستمرار¹.

حوت يونس

يقول تعالى: "وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَاْمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ" (الصافات: 139-148)، ويقول سبحانه: "وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ" (الأنبياء: 87، 88)، ويقول عز وجل مخاطبا النبي محمدا الكريم: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ، لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ، فَاجْتَنَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ" (القلم: 48-50).

اضطرب الرازي في تفسير قصة يونس والحوت، فمع ما ورد من ألفاظ قرآنية من؛ (أبق) التي تعني الهروب من سيده والخروج عن الطاعة²، و(مغاضبا) التي في سياق أنه مغاضب لربه³، و (ظن أن لن نقدر عليه) بما يقتضي من شك في محاسبته على مخالفته⁴، و(مليم) هو ذو الملامة المذنب⁵، المستحق

¹ ينظر: زيعور: الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص 181-182.

² ينظر: الرازي: التفسير الكبير، م 13، ج 26، ص 165.

³ السابق، م 13، ج 26، ص 165. م 11، ج 22، ص 215.

⁴ السابق، م 11، ج 22، ص 215.

⁵ السابق، م 11، ج 22، ص 215.

للم لوم الآتي بما يلام عليه¹، و(من الظالمين) أي ظلمت نفسي بفراري بغير إذنك²، وتقديم الرسالة على الحدث، (إن يونس لمن المرسلين، إذ أبق)³، و(من الظالمين) وما تقتضيه الرسالة من العصمة، فقد كان رسولاً في تلك الحالة⁴، إلى غير ذلك من ألفاظ وسياقات، كـ(مكظوم)، و(اجتباه ربه فجعله من الصالحين)، و(هو مذموم)، و(كان من المسبحين... للبت في بطنه إلى يوم يبعثون)، و(نادى في الظلمات)، و(من الغم)، ونهي النبي محمد عن أن يكون كصاحب الحوت، في تخليه عن تحمل أعباء الدعوة، والصبر عليها⁵... زادت الإشكالات لدى المفسرين.

ينقل الرازي أن يونس خرج حتى "أتى بحر الروم، فوجد قوماً هياًوا سفينة، فركب معهم، فلما تلججت السفينة، تكفأت بهم، وكادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ههنا رجل عاص أو عبد آبق؛ لأنّ السفينة لا تفعل هذا من غير ريح، إلا وفيها رجل عاص، ومن رسمنا أنا إذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نفتزع، فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق أحد خير من أن تغرق السفينة، فافترعوا ثلاث مرات، فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام، فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، وألقى نفسه في البحر، فجاء حوت فابتلعه، فأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة، فإني جعلت بطنك سجناً له، ولم أجعله طعاماً لك، ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت، نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف، ليس عليه شعر ولا جلد، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين، يستظل بها، ويأكل من ثمرها حتى اشتد، فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام، فقليل له: أتحزن على شجرة، ولم تحزن على مئة ألف أو يزيدون، حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم"⁶، و "لما أراد الله حبس يونس عليه السلام، أوحى إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش له لحماً، ولا تكسر له عظماً، فأخذه، وهوى به إلى أسفل البحر، فسمع يونس عليه السلام حساً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه هذا تسبيح دواب البحر، قال فسبح،

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 13، ج 26، ص 166.

² السابق، م 11، ج 22، ص 217.

³ السابق، م 13، ج 26، ص 164. م 11، ج 22، ص 213.

⁴ السابق، م 15، ج 30، ص 100.

⁵ السابق، م 11، ج 22، ص 215.

⁶ السابق، م 11، ج 22، ص 213-214.

فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا مثله"¹، ونقل الرازي في مدة لبثه في بطن الحوت أقوالاً، معترضاً عليها دون أن يبين لنا موقفه، أو يجزم بمدة، ولا أن يستبعد صيرورته حياً في بطنه، فقال: "اختلفوا في أنه كم لبث في بطن الحوت، ولفظ القرآن لا يدل عليه، قال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً، وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه، وعن مقاتل بن حيان ثلاثة أيام، وعن عطاء سبعة أيام، وعن الضحاك عشرين يوماً، وقيل شهراً، ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير"².

لقد تناول العهد القديم قصة يونس في سفر يونس، ومختصره أن يونس هرب من الاستمرار في دعوة أهل نينوى، وفر من وجه الرب إلى ترشيش، ونزل يافا، فوجد سفينة ذاهبة فركبها، وجاءت عاصفة، فكادت تكسر السفينة فافترعوا على من يظنون أنه سبب هذا البلاء، فوقعت القرعة على يونس، وأخبرهم أنه هارب من وجه الرب، وأنه سبب هذا النوء العظيم عليهم، وطرحوه في البحر، فسكن هيجانه واضطرابه، وأعد الرب حوتا عظيماً، فابتلع يونس، ولبث في بطنه ثلاثة أيام، وقد طاف به جميع تيارات البحار ولجج الأنهار، وهناك صلى يونس ودعا، فاستجاب له الرب، وسمع صوت توبته، فأمر الحوت أن يقذف يونس إلى البر، ثم ذهب إلى أهل نينوى ودعاهم، وأخبرهم أنه بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى، ولكنهم آمنوا بالله قبل انتهاء المهلة، ورجعوا عن أعمالهم الرديئة، فندم الله، ولم يأخذهم بالعذاب، فغم ذلك يونس وأغاضه؛ لأن الله بطيء الغضب كثير الرحمة، فخرج يونس من المدينة، واتخذ مظلة، وجلس تحتها في الظل، فأعد الله يقطينة، فارتفعت فوق يونس؛ لتكون ظلاً على رأسه، وفرح باليقطينة، ثم أعد الله دودة فضربت اليقطينة وبيست، فاغتاظ يونس، فقال له الرب: أنت شفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم، وبهائم كثيرة"³.

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 22، ص 217.

² السابق، م 13، ج 26، ص 166.

³ ينظر: يونس: 1-4.

وهذه القصة في ابتلاع الحوت لشخص ثم لفظه على البر، تحاكي أسطورة هندية قديمة تخبر عن أحد أبطالها، واسمه سكتيداوة، وقد "كان يجوب البراري والبحار، بحثاً عن المدينة الذهبية، فسقط في إحدى رحلاته في البحر؛ حيث ابتلعه حوت، ثم تقيأه على الشاطئ، فخرج من بطنه حياً يرزق"¹.

و"فهمت بعض المذاهب الإسلامية القديمة تلك القصة على أنها تطهير من الخطيئة، بمعنى أن الوقوع في الحوت تعبير عن اقتراف ذنب، وبالتالي فالقصة هي استعارة تمثل التطهر والانبعاث، وولادة خالصة من الأدران"².

وبعضهم ذهب إلى أن "القرآن الكريم لا يقول؛ لا من بعيد ولا من قريب: إن الحوت قد ابتلع يونس في بطنه، ثم فلحه، بل يبين أن الحوت النقمه، والالتقام ابتداء هو الوقوع في الفم أو الإمساك به، ولذلك يطرح القرآن إمكانين لمصير يونس عليه السلام: إمكان الابتلاع واللبث في البطن دون خروج، أي أن الحوت يأكله، "اللبث في بطنه إلى يوم يبعثون"، وإمكان النبذ والإلقاء واللفظ، "لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء" ولأنه مؤمن فقد اختار الله له الاجتناء بعد أن فلحه الحوت على اليابسة، ولكن لما سبق إلى العقل تأويل تاريخي متراكم عبر الأزمان قادم من الإسرائيليات، وقع في هذه المصيدة التأويلية، وقال بابتلاع الحوت لنبي الله يونس في بطنه، ثم فلحه إياه"³.

هدهد سليمان

كلف الله الإنسان وحمل الأمانة دون السماوات والأرض، فالحيوانات بلا دين⁴، ولا تملك مقومات الإدراك المكافئ لتشكيل أديان وعبادات، ولا تملك مدركات الوعي في شأن الحكم وال عمران والسلطان والقوة المهيمنة في عرف الدول في العادة، والدين شأن إنساني، والأنبياء بشر، ورسالتهم موجهة

¹ الصليبي، كمال: خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، ط6، دار الساقى، بيروت، 2006م، ص300.

² زيعور: الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص181.

³ العدوي: الإيمان بين الغيب والخرافة، ص93-94.

⁴ ينظر: الخشت، محمد عثمان: تطور الأديان قصة البحث عن الإله، مكتبة الشروق الدولية، مصر الجديدة، 2010م، ص8، 90.

للناس¹، والحيوانات لو كانت بمثل وعي الإنسان وعقله؛ لكانت مكلفة²؛ لأنها امتلكت مناط التكليف، فالبشر بطبيعتهم حيوانات ثقافية، بمعنى أنهم يستطيعون أن يتعلموا من الخبرة، وأن ينقلوا ما تعلموه إلى سلالاتهم عن غير طريق الوراثة³، وبذلك تميزوا عن سائر المخلوقات.

فالإنسان حيوان ناطق⁴، تميز بالكلام، علاوة عن أنه تكرم بالعقل عن سائر الحيوانات⁵، واستحق حمل الأمانة التي تأبّت عن حملها جميع المخلوقات، ولكن نجد لبعضها خصوصية تقترب مما لدى الإنسان كهدد سليمان، وقد رد الرازي على الطاعن في هذه القصة، فقال: "إن الملاحظة طعنت في هذه القصة من وجوه:

أحدها: أن هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدد تكلمتا بكلام لا يصدر ذلك الكلام إلا من العقلاء، وذلك يجر إلى السفسطة، فإننا لو جوزنا ذلك، لما أمتنا في النملة التي نشاهدها في زماننا هذا، أن تكون أعلم بالهندسة من إقليدس، وبالنحو من سيبويه، وكذا القول في القملة والصنبان، ويجوز أن يكون فيهم الأنبياء والتكليف والمعجزات، ومعلوم أن من جوز ذلك كان إلى الجنون أقرب.

وثانيها، أن سليمان عليه السلام كان بالشام، فكيف طار الهدد في تلك اللحظة اللطيفة من الشام إلى اليمن ثم رجع إليه؟

وثالثها: كيف خفي على سليمان عليه السلام حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال: إن الجن والإنس كانوا في طاعة سليمان، وإنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية، وكان تحت راية بلقيس على ما يقال:

¹ الخشت، محمد عثمان: تطور الأديان قصة البحث عن الإله، ص14.

² ينظر: الجوزي، ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي: الطب الروحاني، ط1، تحقيق: عبد الله بدران، دار الخير، بيروت، 1992م، ص36.

³ ينظر: فوكوباما: نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية، ص38.

⁴ ينظر: الجيلي: الإنسان الكامل، ص100.

⁵ ينظر: الجوزي: الطب الروحاني، ص37.

اثنا عشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف، ومع أنه يقال: إنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدد إلا مسيرة ثلاثة أيام.

ورابعها: من أين حصل للهدد معرفة الله تعالى، ووجوب السجود له، وإنكار سجودهم للشمس، وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟

والجواب عن الأول: أن ذلك الاحتمال قائم في أول العقل، وإنما يدفع ذلك بالإجماع، وعن البواقى أن الإيمان بافتقار العالم إلى القادر المختار يزيل هذه الشكوك¹.

لعل أصل تفسير قصة هدهد سليمان مع ملكة سبأ جاءت من الإسرائيليات، ففي الترجوم سمي حامل رسالة سليمان "ديك الصحراء"، والقصة هي: "لما انشرح قلب سليمان بخمره، أمر بإحضار حيوانات الصحراء وطيور الهواء وزحافات الأرض، والجن والأرواح والعفاريت؛ لترقص أمامه؛ ليُظهر عظمتة لجميع الملوك الذين كانوا خاضعين خاشعين أمامه، فاستدعى كتبة الملك بأسمائهم، فأثوا إليه ما عدا المسجونين والأسرى والرجل الذي فُوضت له حراستهم، وكان ديك الصحراء في تلك الساعة يمرح بين الطيور، ولم يوجد، فأمر الملك أن يحضروه بالقوة، وهمّ بإهلاكه، فرجع ديك الصحراء، ووقف أمام حضرة الملك سليمان، وقال له: اسمع يا مولاي، ملك الأرض، وأمل أذنك واسمع أقوالي، ألم تمض ثلاثة أشهر من حين ما تفكرت في قلبي، وصممت تصميماً أكيداً في نفسي أن لا أكل ولا أشرب ماء، قبل أن أرى كل العالم، وأطير فيه، وقلت: ما هي الجهة أو ما هي المملكة غير المطيعة لسيدي الملك؟ فشاهدت ورأيت مدينة حصينة اسمها قيطور في أرض شرقية، وترابها أثقل من الذهب، والفضة كزبالة في الأسواق، وقد غُرست فيها الأشجار من البدء، وهم شاربون الماء من جنة عدن، ويوجد جماهير يحملون أكاليل على رؤوسهم، فيها نباتات من جنة عدن؛ لأنها قريبة منها، ويعرفون الرمي بالقوس، ولكن لا يمكن أن يقتلوا بها، وتحكمهم جميعهم امرأة اسمها ملكة سبأ، فإذا تعلق إرادة مولاي الملك

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 12، ج 24، ص 191-192.

فليمنطق حقوي هذا الشخص، وأرتفع وأصعد إلى حصن قيطور إلى مدينة سبأ، وأنا أقيّد ملوكهم بالسلاسل وأشرفهم بأغلال الحديد، وأحضرهم إلى سيدي الملك. فوقع هذا الكلام عند الملك موقعاً حسناً، فدُعي كتبة الملك، وكتبوا كتاباً ربطوه بجناحي ديك الصحراء، فقام وارتفع إلى السماء، وربط تاجه وتقوى، وطار بين الطيور، فطاروا خلفه، وتوجهوا إلى قلعة قيطور إلى مدينة سبأ، واتفق في الفجر أن ملكة سبأ كانت خارجة إلى البحر للعبادة، فحجبت الطيور الشمس. فوضعت يدها على ثيابها ومزقتها، ودُهِشت واضطربت، ولما كانت مضطربة دنا منها ديك الصحراء، فرأت كتاباً مربوطاً في جناحه ففتحته وقرأته، وهاك ما كتب فيه: مني أنا الملك سليمان، سلام لأمرائك؛ لأنك تعرفين أن القدوس المبارك جعلني ملكاً على وحوش الصحراء، وعلى طيور الهواء، وعلى الجن، وعلى الأرواح، وعلى العفاريت، وكل ملوك الشرق والغرب والجنوب والشمال، يأتون للسؤال عن سلامتي. فإذا أردت وأتييت للسؤال عن صحتي فحسناً تفعلين، وأنا أجعلك أعظم من جميع الملوك الذين يخرون سُجداً أمامي، وإذا لم تطيعي ولم تأتي للسؤال عن صحتي، أرسل عليك ملوكاً وجنوداً وفرساناً، وإذا قلت: ما هم الملوك والجنود والفرسان الذين عند الملك سليمان؟ إن حيوانات الصحراء هم ملوك وجنود وفرسان، وإذا قلت: ما هي الفرسان؟ قلت إن طيور الهواء هي فرسان، وجيوشي الأرواح والجن والعفاريت، هم الجنود الذين يخنفونكم في فرشكم في داخل بيوتكم، حيوانات الصحراء يقتلونكم في الخلاء، طيور السماء تأكل لحمكم منكم، فلما سمعت ملكة سبأ أقوال الكتاب، ألقت ثانية يدها على ثيابها ومزقتها، وأرسلت واستدعت الرؤساء والأمراء، وقالت لهم: ألم تعرفوا ما أرسله إليّ الملك سليمان؟ فأجابوا: لا نعرف الملك سليمان، ولا نعتد بمملكته، ولا نحسب له حساباً، فلم تصغ إلى أقوالهم، بل أرسلت واستدعت كل مراكب البحر وشحنتها هدايا وجواهر وحجارة ثمينة...¹.

وفي العهد القديم لم يرد شيء من هذه القصة المتعلقة بالجن والطيور والهدد، وإنما سمعت ملكة سبأ بخبر الملك سليمان، فجاءت تزوره؛ لنتحقق، "سمعت ملكة سبأ بخبر سليمان... فقالت للملك: صحيحاً

¹ تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص73-75.

كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك، وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئتُ وأبصرت عيناى¹.

تسبيح الطير

نقل الرازي في تفسير قوله تعالى عن داود عليه السلام: " إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْبُشْرِاقِ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ" (ص: 18، 19)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "كان داود إذا سبّح جاوبته الجبال، واجتمعت إليه الطير، فسبحت معه، واجتماعها إليه هو حشرها، فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله²، ثم ينتصر الرازي لهذا التأويل، فيقول: "فإن قيل: كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها، قلنا: لا يبعد أن يقال: إن الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه حينئذ³ وهو ما قاله كذلك في الجبال، حيث قال: "إن الله سبحانه خلق في جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقا، وحينئذ صار الجبل مسبحا لله تعالى⁴."

وأشار الرازي لتأويل مروي عن تفسير القفال⁵ مجوزا أن يقال به، وهو "إن داود عليه السلام قد أوتي من شدة الصوت وحسنه، ما كان له في الجبال دوي حسن، وما يصغي الطير إليه لحسنه، فيكون دوي الجبال، وتصويت الطير معه، وإصغائها إليه تسبيحا⁶."

ونظرا لما سبق بيانه في مقدمة هذا الفصل، وما تلاه من موضوع طيور إبراهيم عليه السلام، أكتفي به عن نقل نظائر هذا الفهم الأسطوري في تكليم الحيوانات بوعي وعقل يناظر الإنسان، ويتفوق عليه في التقوى والعلم في بعض الأحيان، مع الإشارة أن هذا على سبيل الحصر والخصوصية وليس على سبيل

¹ ملوك الأول 10: 1-8.

² الرازي: التفسير الكبير، م 13، ج 26، ص 187.

³ السابق، م 13، ج 26، ص 187.

⁴ السابق، م 13، ج 26، ص 186.

⁵ أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي المعروف بـ "القفال الكبير" (291 هـ - 365 هـ) (904 - 976 م)، أحد أعلام مذهب الإمام الشافعي، فقيه ومفسر وراوي حديث، ومن أشهر أئمة المسلمين عبر التاريخ: <https://bit.ly/3niixcR>

⁶ الرازي: التفسير الكبير، م 13، ج 26، ص 186.

التعميم، فالحمد سبحانه صرح بالنص القرآني أن هذه الحيوانات لا تتكلم ولا تعقل، مشبها الضالين بها انتقاصا لتفريطهم بإعمال العقول وتدقيق الفكر، فقال عز وجل: " أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا" (الفرقان: 44)، وقال: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۚ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (الأعراف: 179)، علاوة عما سبق ذكره من تشبيهات في القرآن للإنسان ببعض الحيوانات، كالحمار في الجهل والغباء، كذلك قول النبي الكريم في امتناع التكلم من الحيوانات: اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، أي التي لا تقدر على النطق¹.

حيوانات تتكلم

من الحيوانات التي أوردتها الرازي في تفسيره، تتطرق وتتكلم بوعي وإدراك وحكمة بحسب المرويات، البقرة والجدي والذئب والبعير والنملة، فنقل "عن النبي، صلى الله عليه وسلم، بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها، فالتفتت إليه البقرة، فقالت: إني لم أخلق لهذا، وإنما خلقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم، فقال النبي: آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما"²، كما نقل عن أسد يرشد أصحابها، فقال: "عن سفينة مولى رسول الله، قال: ركبت البحر، فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركبت لوحا من ألواحها، فطرحني اللوح في خيسة فيها أسد، فخرج الأسد إلي، يريدني، فقلت: يا أبا الحرث، أنا مولى رسول الله، فتقدم، ودلني على الطريق، ثم همهم، فظننت أنه يودعني، ورجع"³، وقد تكلم الجدي، وشهد للنبي أمام أبي لهب، بعدما دعاه النبي نهارا فأبى، "فلما جن الليل ذهب إلى داره مستنابا بسنة نوح؛ ليدعوه ليلا كما دعاه نهارا، فلما دخل عليه، قال له: جئتني معتذرا، فجلس النبي عليه السلام أمامه كالمحتاج، وجعل يدعوه إلى الإسلام، وقال: إن كان يمنعك العار، فأجبنى في هذا الوقت

¹ ينظر: الموسوعة الحديثية، حديث "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة...": <https://dorar.net/hadith/sharh/87039>. أخرجه أبو داود (2548).

² الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 21، ص 88.

³ السابق، م 11، ج 21، ص 90.

واسكت، فقال: لا أومن بك حتى يؤمن بك هذا الجدي، فقال عليه الصلاة والسلام للجدي: من أنا؟ فقال: رسول الله، وأطلق لسانه يثني عليه، فاستولى الحسد على أبي لهب، فأخذ يدي الجدي ومزقه، وقال: تبا لك أثر فيك السحر، فقال الجدي: بل تبا لك¹، ونص الرازي على أن النبي محمدا تكلم مع الذئب ومع البعير².

وأشار الرازي إلى قصة مجيء الشجرة وكلام الذئب³، والرازي يشير بكلام الذئب إلى حديثين، الأول في الصحيح: "قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: بينما راع في غنمه، عدا الذئب فأخذ منها شاة، فطلبها حتى استنفذها، فالتفت إليه الذئب، فقال له: من لها يوم السبع؟ ليس لها راع غيري، فقال الناس: سبحان الله، فقال النبي: فأنى أومن به وأبو بكر وعمر"⁴. والثاني: "عن أهبان بن أوس، قال: كنت في غنم لي، فشد الذئب على شاة منها، فصحتُ عليه، فألقى الذئب على ذنبه يخاطبني، وقال: من لها يوم تشتغل عنها؟ تمنعني رزقا رزقنيه الله تعالى، فصفت بيدي، وقلت: والله ما رأيت شيئا أعجب من هذا، فقال: أعجب من هذا، هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين هذه النخلات، يدعو إلى الله، قال: فأتى أهبان إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فأخبره، وأسلم"⁵، وفي رواية على شرط الصحيح، وصححها البيهقي، "عن أبي سعيد الخدري، قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فألقى الذئب على ذنبه، فقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقا ساقه الله إلي! فقال: يا عجبا! ذئب مقع على ذنبه، يكلمني كلام الإنس! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد، صلى الله عليه وسلم، ييثر بيبثر يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره، فأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 16، ج 32، ص 168.

² ينظر: السابق، م 4، ج 8، ص 24.

³ ينظر: السابق، م 2، ج 4، ص 33.

⁴ العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج 7، ص 52. أخرجه البخاري 15/5 (3690).

⁵ السليق، ج 7، ص 32.

فنودي: الصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: صدق¹.

كما نقل الرازي دعاء نملة تستسقي، فقال: "قال السدي: أصاب الناس قحط في عهد سليمان بن داود عليهما السلام، فأتوه، فقالوا له: يا نبي الله، لو خرجت بالناس إلى الاستسقاء، فخرجوا، وإذا هم بنملة قائمة على رجليها، بأسطة يديها، وهي تقول: اللهم أنا خلق من خلقك، ولا غنى لي عن فضلك، قال: فصب الله تعالى عليهم المطر، فقال لهم سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد استجيب لكم بدعاء غيركم"².

لقد أوردت نظائر في نطق الحيوانات في الأساطير الرافدية في بداية هذا الفصل بما يغني عن الإعادة، وسأعرض لبعض المرويات الأسطورية مما لم يرد سابقاً³.

فيما ذكره هوميروس في ملحمة الإلياذة اليونانية، التي تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد⁴، أن البطل أخيل أراد الانتقام من الطرواديين، بعد مقتل صديقه المحارب اليوناني باتروكلوس، وقد استعار المركبة ذاتها التي قتل فيها صديقه، والتي تجرها الخيل، ودعا الخيل أن تحرص على سلامته، أكثر من حرصها على باتروكلوس⁵، "وبعد ذلك يحدث أغرب شيء، يبدأ فرس منها، وهو زانتوس، بالتحدث بصوت بشري... دلى زانتوس رأسه حتى هوى عرقه من حشية الطوق مارا بالطوق، وكنس الأرض، وقال: بالفعل سيدي المهيّب، سنعيدك اليوم مرة أخرى إلى البيت سالما، ومع ذلك فساعة موتك تدنو، ولن نكون نحن سببها، بل سببها إله كبير، ويد القدر القوية، أنت كذلك محكوم عليك أن تسقط في معركة، غضب أخيل منه، وأجاب: يا زانتوس، تتعب لسانك بالتنبؤ بهلاكي"⁶، وفي ترجمة أخرى عن

¹ قصة الذئب وشهادته بالرسالة: أخرجـه أحمـد 83/3 (11814)،
https://islamweb.net/ar/library/index.php?page=bookcontents&flag=1&bk_no=59&ID=636

² الرازي: التفسير الكبير، م1، ج1، ص176.

³ ينظر: الشواف: ديوان الأساطير، ج3، ص365-366، ص425، ج4، ص456.

⁴ ينظر: هوميروس: الإلياذة، تحرير: أحمد عثمان، ص2، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 2008م، ص23، ص34.

⁵ ينظر: آش: المعجزات، ص17.

⁶ آش: المعجزات، ص17.

تكلم الفرس: " وهبته الإلهة هيرا القدرة على الكلام، فقال: أي أخيليوس الجبار، حقا سنحميك اليوم، ولكن يوم القدر المحتوم قريب منك..."¹، وذكر المحرر في الهامش أن الحيوانات تحدثت في الأساطير الأساطير البابلية، وتحدث ثور في تواريخ ليفيوس، وكذلك في خرافات أيسوبوس، وحواديت فابديروس²، ومثل هذا المعتقد تردد صداه في الأدب العربي القديم، وتجلت ملامحه اليونانية في نماذج كثيرة تحاكي تلك الحكايات، منها على سبيل المثال، قصة الذئب الذي أخذ يعدد الذنوب على الحمل افتئاتا، في النقاءات مع خرافات بابريوس وفايدرس:

وَأَنْتَ كَذِئْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً لِعَمْرُوسَةَ وَالذَّئْبُ غَرْتَانُ مَرْمِلُ
أَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ سَبَبْتِنِي فَقَالَتْ مَتَى ذَا قَالَ ذَا عَامُ أَوَّلُ
فَقَالَتْ وَلِدْتُ الْعَامَ بَلْ رُمْتُ ظُلْمًا فَدُونَكَ كُنْزِي لَاهِنَالِكَ مَأْكَلُ³

وكانت العرب تعتقد أن في زمن الفطحل، وهو الزمن الذي كانت فيه الصخور رطبة لينة، كل شيء يعرف وينطق⁴، وهذا الزمن كان قبل نوح، وأثناءه كانت الحيوانات تتكلم وتفكر⁵، ومنعكسات هذا المعتقد تجلت من خلال كتب الآداب في حكايات الحيوانات مثل كليلة ودمنة، وسرديات ألف ليلة وليلة، والأمثال التي صيغت على ألسنة الحيوانات، مقترنة مع شخصيات مقدسة، من مثل ما روي "عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام، مر على بلبل فوق شجرة، يحرك ذنبه، ورأسه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: يقول: أكلت نصف ثمرة، فعلى الدنيا العفاء، ومر بهدهد فأخبر أنه يقول: إذا نزل القضاء عمي البصر، أو من لا يرحم لا يرحم، وصاحت طيطوى عنده فأخبر أنها تقول: كل حي ميت، وكل جديد بال، والورشان يقول: لدوا للموات، وابنوا للخراب،

¹ هوميروس: الإلياذة، ص 654-655.

² ينظر: هوميروس: الإلياذة، ص 654.

³ ينظر: عباس، إحسان: ملامح يونانية في الأدب العربي، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993م، ص 89-90.

⁴ ينظر: عجينة: موسوعة أساطير العرب، ص 238.

⁵ ينظر: عسكر: أساطير العرب قبل الإسلام، ص 150.

والطاووس يقول: كما تدين تدان، وإذا صاحت العقاب، تقول: البعد عن الناس راحة، والقطاة تقول: من سكت سلم، والنسر يقول: يا بن آدم عش ما شئت فإنك ميت¹.

كذلك تسلل معتقد تكلم الحيوانات للكتاب المقدس في العهد القديم، مما يعكس مستوى المعرفة حينذاك، التي شكلت قبولاً لهذا التصور إذا اقترن الأمر بقديس أو نبي، وكأنه عودة لزمن الفطحل الذي انتهى باستثناء لا يشق على الفكر قبوله، ما دام مرتبطاً بفرد مقدس، وليس متعلقاً بظاهرة عامة، فهذه أتان بلعام يفتح الله فهمها فتكلمه، " قام بلعام صباحاً، وشد على أتان، وانطلق مع رؤساء موآب، فحمي غضب الله لأتانه منطلق، ووقف ملاك الرب في الطريق ليقاومه، وهو راكب على أتان، وغلاماه معه، فأبصرت الأتان ملاك الرب واقفاً في الطريق، وسيفه مسلول في يده، فمالت الأتان عن الطريق، ومشيت في الحقل، فضرب بلعام الأتان ليردها إلى الطريق، ثم وقف ملاك الرب في خندق للكروم، له حائط من هنا وحائط من هناك، فلما أبصرت الأتان ملاك الرب زحمت الحائط، وضغطت رجل بلعام بالحائط، فضربها أيضاً، ثم اجتاز ملاك الرب أيضاً، ووقف في مكان ضيق؛ حيث ليس سبيل للنكوب يمينا أو شمالاً، فلما أبصرت الأتان ملاك الرب، ربضت تحت بلعام، فحمي غضب بلعام، وضرب الأتان بالقضيب، ففتح الرب فم الأتان، فقالت لبلعام: ماذا صنعت بك حتى ضربتني الآن ثلاث دفعات؟ فقال بلعام للأتان: لأنك ازدريت بي، لو كان في يدي سيف لكنت الآن قد قتلتك، فقالت الأتان لبلعام: ألسنت أنا أتانك التي ركبت عليها منذ وجودك إلى هذا اليوم؟ هل تعودت أن أفعل بك هكذا؟ فقال: لا، ثم كشف الرب عن عيني بلعام، فأبصر ملاك الرب واقفاً في الطريق، وسيفه مسلول في يده، فخر ساجداً على وجهه².

وقد كثرت مكالمات الحيوانات في عالم المتصوفة، وكانت "من الشخصيات الأساسية في الكرامة، التي تظهر عادة لمساعدة الصوفي من جهة، أو لتجسد مراميه من جهة أخرى، أو لتمثل رغباته المسقطه من

¹ خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، ص 38-39.

² سفر العدد، 22: 21-31.

جهة أخيرة، إن كرامة البسطامي مثلاً، وإذ يكلم الجمال، أو رابعة التي تأتيها الطير لسماع صوتها، عملية اسقاط رغبة بشرية، أي أن الكلام هنا مع الحيوان رغبة بشرية يتمنى الإنسان أن تشبع¹، وهذه الرغبة تحولت إلى مرويّات حقيقية، تكلمت فيها الحيوانات، ونصحت الإنسان، كما هو الحال في بقرة القشيري، والحية التي سألت ابن عربي عن أبي مدين، والحمار الذي نبّه صاحبه ألا يضرب رأس الحمار²، والأخبار في كلام البهائم تُجمّع على إثباتها حسب قولهم³.

¹ زيعور: الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، 28.

² ينظر: السابق، ص 51.

³ ينظر: السابق، 119.

الفصل الرابع

الأسطورة في النبات والجماد

في يوم من الأيام أدخلت ولدي في تجربة، وهو بعمر أربع سنوات، وعقله في طور التكوين الأولي، و تساءلت أمامه قريبا من شجرة البرتقال، هل يمكن لشجرة البرتقال أن تتكلم معنا؟ وقد أخذته معي في انتباهة، وتكلمت مع شجرة البرتقال مرارا، دون أن ترد، وضربت بها دون أن تبكي، وابتعدت عنها فلم تلحقني مهرولة، ومع محاولتي عرض اهتزازها لتظهر حركة منها، وصوت حفيفها عند الضرب؛ معللاً له أنها تصيح وتصرخ، وعرضت له شوكة كأداة تضرب بها من يقترب منها، فتوجعه، رغم كل ذلك ظل ينظر لتمثيلي معه باستغراب واندھاش، وهو يقول لي: أبي ما لك؟ (ملتفتا لسلوكي كنوع من الهبل) على الرغم من أنني جعلته يضطرب ذهنياً، ظل يؤكد لي أن هذه شجرة، ليست انساناً، فليس لها عين وأذن وفم لكي تتكلم... وفي اليوم التالي خرجت بمعيتي مرة أخرى إلى الشجرة نفسها، وهي محملة بثمارها برتقالية اللون، وطعمها اللذيذ، وأخذت أقطف من ثمارها، وأكلم الثمار اللذيذة والجميلة، وأتوجه للشجرة بالشكر، وتقيل أوراقها، وهو يقابل كل ذلك بضحكة ساخرة، وينهاني عن فعل هذا الهبل على حدّ تعبيره... ولما أخذت أطعمه الثمر اللذيذ أسأله؛ من أين هذا الثمر؟ قال: من الشجرة، قلت: كيف صنعت هذا؟ قال: من الأرض والماء الذي نسقيها إياه، فقلت له: إنها (شاطرة) هل تستطيع أنت بالتراب والماء أن تصنع لنا ثماراً لذيذة نأكلها؟ قال: لا، قلت له: ولا أنا أستطيع ذلك، إذن هي (أشطر) منا، وحينئذ بدأت أرى في سنحته تحولا، فأخذت أشكر الشجرة وأقبلها لأجد ردة فعله تلاشت، وكأنه عرف أن الشجرة تستحق الشكر، لأنها قدمت لنا ثماراً، ولولا أنها تفهم و(شاطرة) ما استطاعت أن تصنع هذه الثمار... هكذا يمكن العبث بالعقل في طور التكوين؛ بحيث يكاد يتخلى عن المنطق إلى

الوهم، ولكن مشاهدة الأشياء الواقعة كما هي واقعة عند ظاهرها المرئي المحدود، يقيم سورا منيعا بين عالم الوهم وعالم الواقع¹.

لقد تناولت في هذا الفصل تسلسل أساطير النبات والجماد، مما ورد في تفسير الفخر الرازي، من تكلم الشجر ومشيه، وكذلك التابوت، وحنين الجذع، ونخلة مريم التي كانت جذعا يابسا، فتحول الجذع شجرة أثمرت رطبا في الحال، وحجر موسى المحمول الذي ينفجر بعيون الماء كلما ضربه موسى بعصاه، والحجر الذي أمسك بثوب موسى بعدما خلعه ليغتسل، فهرب به، وقد ضربه موسى بالعصا على فعلته، والحجارة التي كانت تتكلم، وكذلك العصا التي تضيء في الظلمة.

الشجر يتكلم

أورد الرازي قصة تكلم الأشجار ومشيتها إلى النبي الكريم؛ لتشهد أنه رسول الله، أو تسلم عليه، أو ما هو في حكم الأشجار كالجذع، والتابوت المصنوع من الخشب، فقال: "وروي أنه حن الجزع لصعود رسول الله المنبر، وروي عن النبي أنه لما أتاه الوحي في أول المبعث، وانصرف النبي إلى منزله، سلمت عليه الأحجار والأشجار، فكلها كانت تقول: السلام عليك يا رسول الله، قالوا: فغير ممتنع أن يُخلق في بعض الأحجار عقل وفهم حتى تحصل الخشية فيه"²، ويؤكد الرازي حصول ذلك وعدم الالتفات لمن أنكره بدعوى طبيعته المادية المنافية لحدوث ذلك، فيقول: "وأنكرت المعتزلة هذا التأويل لما أن البنية واعتدال المزاج، شرط قبول الحياة والعقل، ولا دلالة لهم على اشتراط البنية إلا مجرد الاستبعاد، فوجب أن لا يلتفت إليهم"³، وفي موطن آخر من تفسيره يذكر لنا بعض الروايات التي تأتي على مشي الشجر ونطقه بكلام البشر، فيقول: "فقالوا لرسول الله: ما أنت؟ قال: أنا نبي الله، قالوا: فمن يشهد لك على ذلك، قال: هذه الشجرة، تعالي يا شجرة، فجاءت تجر عروقها، لها قعاقع، حتى انتصبت بين يديه، فقال: على ماذا تشهدين لي؟ قالت: أشهد أنك رسول الله، قال: اذهبي، فرجعت كما جاءت

¹ ينظر: محمود، زكي: تجديد الفكر العربي، ص209.

² الرازي: التفسير الكبير، م2، ج3، ص141.

³ السابق، م2، ج3، ص141.

حتى صارت كما كانت"¹، وساق الرازي تفسيرات في تكلم التابوت الخشبي ومشيه، وهو "صندوق كان موسى عليه السلام يضع التوراة فيه، وكان من خشب"²، حيث يقول: "ثم بقي في أيدي بني إسرائيل، فكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم، وحكم بينهم"³، "واعلم أنه تعالى جعل إتيان التابوت معجزة"⁴، و"كان له وجه كوجه الإنسان، وكان لها ريح هفافة... قول ابن عباس رضي الله عنهما، هي صورة من زبرجد أو ياقوت لها رأس كرأس الهر، وذنب كذنبه، فإذا صاحت كصياح الهر، ذهب التابوت نحو العدو، وهم يمضون معه، فإذا وقف وقفوا، ونزل النصر"⁵.

والرازي في شهادة الشجرة ومشيتها يشير للحديثين الصحيحين سنداً، الأول: أخرجه "الدارمي في سننه عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: كنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم في سفر، فأقبل أعرابي، فلما دنا منه، قال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أين تريد؟ قال: إلى أهلي قال: هل لك في خير؟ قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فقال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: هذه السلمة، فدعاها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخذ الأرض خذاً، حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت ثلاثاً أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه، وقال: إن اتبعوني أتيتكم بهم، وإلا رجعت، فكنت معك. والحديث أخرجه كذلك ابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني"⁶. والثاني، شهادة عذق النخلة، ونزوله: "عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: جاء أعرابي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: بم أعرف أنك نبي؟ قال: إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة تشهد أني رسول الله؟ فدعاه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل ينزل من النخلة، حتى سقط إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ارجع، فعاد،

¹ الرازي: التفسير الكبير، م15، ج30، ص154.

² السابق، م3، ج6، ص191.

³ السابق، م3، ج6، ص191.

⁴ السابق، م3، ج6، ص191.

⁵ السابق، م3، ج6، ص193.

⁶ إسلام ويب: قصة الشجرة، <https://bit.ly/30EUzQF>. الطبراني 12/ 431 (13582)، والبخاري (2411)، وذكره الهيثمي 8/ 295، وقال: رجال الصحيح.

فأسلم الأعرابي. أخرجه أحمد والترمذي، واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وابن حبان في صحيحه، وصححه الحاكم، وقال الشيخ شعيب في تحقيقه للمسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين¹.

وأما حنين الجذع فيشر به الرازي إلى ما ورد في الصحاح، وسأذكر ما جاء منه في البخاري برواياته الثلاثة؛ لما في كل رواية من اختلاف، فمن الحنين إلى صياح الصبي، إلى صوت العِشار، الأولى: "عن ابن عمر، رضي الله عنهما: كان النبي يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع، فأتاه فمسح يده عليه"². والثانية: "عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما: أن النبي كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبراً؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة، دُفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي، فضمه إليه، يأن أنين الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها"³. والثالثة: رواية عن جابر بن عبد الله، يقول: "كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان النبي إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر، فكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار، حتى جاء النبي فوضع يده عليها، فسكنت"⁴. وفي رواية بإسناد صحيح على شرط مسلم، ينبعث الصوت من الجذع كخوار يرتج له المسجد، عن "أنس بن مالك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يقوم يوم الجمعة، فيسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد، فجاء رومي، فقال: ألا نصنع لك شيئاً تقعد عليه، فكأنك قائم؟ فصنع له منبراً درجتين، ويقعد على الثالثة، فلما قعد نبي الله، صلى الله عليه وسلم، على المنبر خار الجذع، كخوار الثور، حتى ارتج المسجد لخواره حزناً على النبي، صلى الله عليه وسلم"⁵.

¹ إسلام ويب: قصة الشجرة، <https://bit.ly/30EUzQF>. أخرجه الترمذي (3628).

² العسقلاني: فتح الباري، ج6، ص746.

³ السابق، ج6، ص746.

⁴ السابق، ج6، ص747.

⁵ إسلام ويب: شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، <https://bit.ly/3kR95eY>. أخرجه الترمذي (3627) وابن خزيمة (1777) والبيهقي في "الدلائل" (2/ 558).

وفي سياق هذه الروايات وغيرها، مما أورده ابن حجر العسقلاني، في شرح صحيح البخاري، قال: دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكا، كالحيوان بل كأشرف الحيوان، وفيه تأييد لقول من يحمل "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ" (الإسراء: 44) على ظاهره¹، ونقل عن الشافعي أن ما أعطي محمدا عليه الصلاة والسلام؛ من حنين الجذع، حتى سمع صوته، أكبر من إحياء الموتى الذي أعطي عيسى عليه السلام².

إن الاعتقاد بكلام الشجر وإدراكه ومشيه ليس بغريب عن معتقدات البشر ما قبل الأديان، وما تسلل منها إلى الموروثات الدينية كذلك، فالأساطير تسجل لنا الكثير من مثل هذه العجائب والخرافات عن الأشجار، ومن الطبيعي أن نجد لدى شعوب تلك المرحلة، مع هكذا معتقدات، حالات تأليه الأشجار، وتقديسها وعبادتها، وبالتالي حصول الخوارق منها، وهو الأمر الذي كان سائر العهد حتى بزوغ الإسلام، فالعرب لم تكن بعيدة عن تأليه الأشجار وتقديسها كما سيتبين.

في الأساطير الإغريقية تكثر المداخلات بين الأشجار والخصائص البشرية، فهذا الإله الشاب فوبيوس يطارد ابنة بينيوس فتقرّ منه حياء، فتعبث بثوبها الرياح، فيلتصق بجسدها، ويبرز مفاتها، ويعبث بشعرها، فإذا هو يتهدل متموجا، وهي تهرب منه فما أن تقع أنفاس الإله عليها حتى تخر قواها إلى جانب مياه بينيوس، فتصرخ إلى أبيها بقدرته القدسية أن يحول جمالها الذي أثار الإعجاب، فيستجيب لها على الفور، فاستحال صدرها جذع شجرة، وشعرها أوراقا، وذراعاها أغصانا، وقدمها جذورا، ووجهها قمة تلك الشجرة، ولكنها مع ذلك بدت رائعة، ولم يثن هذا المصير فوبيوس عن حبه، فتحسس بيده جذعها، يتلمس مكان قلبها الذي ما فتئ ينبض تحت اللحاء، وأخذ يحتضن الأغصان ويغرق الشجرة بقبلاته، فإذا هي تتضاءل، فيعدها أن تكون عروسه، وأن ينظم بها الأشعار، وأن تغني قيثارتها بمدحها، وغيرها من الوعود، فتطأطئ الشجرة رأسها، وترخي غصونها؛ لتعلن بذلك عن رضاها

¹ العسقلاني: فتح الباري، ج6، ص749.

² ينظر: السابق، ج6، ص749.

بكلامه، وقبولها لمطلبه،¹ وفي أسطورة أخرى مشابهة لهذا التماهي، ما حصل مع بنات الشمس، المقيمات عند قبر فايثون، يؤدين طقوس الحداد دون انقطاع ليل نهار مدة أربعة شهور، وفي أحد الأيام، تهاوت على الأرض كُبراهن، فخفت لنجدتها أختها الشقراء، غير أنها وقعت في قبضة جذور شجرة نبتت فجأة، وعندما حاولت الثالثة شدها من شعرها، فإذا بها تقطف من رأسها أوراق شجرة، واستحالت إلى شجرة ما عدا الشفاه التي كانت تتادي عبثاً أمهن، التي حاولت انقاذهن من جذوع الأشجار، فهشمت الأغصان وسالت الدماء، حتى نادى أمها قائلة: رفقا بي يا أماه، ناشدتك ألا تؤذيني بما تفعلين، إنك تصيبين بالأذى جسدي الذي يستحيل إلى شجرة، فوداعا يا أماه، وأطبق اللحاء عليها، وسالت منه الدموع²، وفي أسطورة فيليمون وبوكيس، يتحولان لشجرتين بطريقة مشابهة، وخلال ذلك يتكلمان، وأوفيد الذي ينقل هذه الأساطير، يؤكد أن هذه القصة قصّها عليه شيوخ جديرون بالتصديق، ولم يكونوا مدفوعين بدافع من الخداع أو التضليل، وما زال فلاحو فريجيا يشيرون إلى الشجرتين³، وفي أسطورة إيريزيخثون الذي أخذ البلطة القاسية، يضرب بها شجرة البلوط، فما كان من الشجرة إلا أن قالت: أنا حورية من حوريات الإلهة سيريس أغيب في طيات هذه الشجرة، أذكرك وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة بأن عقابك على جرمك آت عما قريب، وفي ذلك ما يخفف عني فراقني للحياة⁴، ومثل ذلك من تكلم الأشجار نجد في أسطورة ميداس، أن الأشجار أخذت تذيع السر، وتخبر بتحول أذني ميداس، مكررة الكلمات نفسها التي أسرها إليها الحلاق⁵، "ميداس ميداس له أذنا حمار"⁶، وفي أديان المجوس والصابئة يزعمون "أن قوى الكواكب تفيض على الأصنام، فتتكلم تلك الأصنام، وتوحي للناس، وتعلم الناس منافعهم، وكذلك قالوا في الأشجار"⁷.

¹ ينظر: أوفيد: مسخ الكائنات، ص 43-44.

² ينظر: السابق، ص 57-59.

³ ينظر: السابق، ص 188.

⁴ ينظر: السابق، ص 189.

⁵ ينظر: السابق، ص 240.

⁶ غريبر: أساطير الإغريق والرومان، ص 44.

⁷ غبرائيل، ميخائيل: أساطير الأولين، مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1894م، ص 70.

وفي أسطورة كيبارييسوس، نجد الأشجار تمشي، فعندما جلس سليل الآلهة فوق ربوة، وأخذ يحرك أوتار قيثارته، حتى أقبلت الأشجار بظلالها، فجاءته أشجار البلوط، والهور، وسنديانة زيوس، والزيفون، والزان، والغار، والبندق، والدردار، والتوب، والسنديان، والجميز، والاسفندان، والصفصاف، واللوتس، وشجيرة البقس، والطرفاء، والريحان، واللورة، والبلاب، والكروم، والدردار، والغبيراء، والصنوبر، والفرصاد، والنخيل، وإلى الجمع الحاشد من الأشجار انضمت شجرة السرو¹، فهذا كيبارييسوس تمشي إليه العديد من الأشجار لتستمع لأنغام قيثارته، وبكت الطبيعة أورفيوس بما فيها من أشجار وأزهار حتى الصخور الصم².

واستمرارا لهذه التصورات المتمازجة بين الأشجار والإنسان أو الآلهة، نجد أسطورة أدونيس، لدى شاعر إغريقي، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، يدعى بانيازيس، حيث يصف ولادة ابنه إله، واسمها ميرها، بعد أن كرهها أبوها، فطلبت مساعدة آلهة أخرى، فحولتها شجرة، ثم بعد تسعة أشهر، انشق اللحاء عن طفل ذي جمال أخذ عجيب، وهو أدونيس، فأخذته أفروديت³، وإن كانت الشجرة تلد الآلهة في صورة بشر، نعثر على عودة أخرى بشكل عكسي، فهذا أوزيريس الذي يمثل النور والخير، تقتله سيث، وتضعه في صندوق، وتلقيه في البحر، فيصل للشاطئ عند ساق شجرة، فما كان من هذه الشجرة إلا أن جذبت الصندوق إليها، فتجسدا معا⁴، وفي أسطورة أخرى تحكي عن رجل اسمه أميتا، وهو أعزب، ذهب للصيد، فهرب منه خنزير بري، وغرق في بحيرة، فانتشله ليجد على نابه حبة جوز الهند، التي لم تكن قد وجدت على الأرض، فرأى في الحلم أمرا بزراعتها، وبعد ثلاثة أيام فقط ظهرت نخلة باسقة، وبعد ثلاثة أخرى أزهرت النخلة، فتسلق أميتا الشجرة ليقطف زهورها، ويصنع منه شرابا، لكنه جرح إصبعه وسال من دمه على زهرة من الزهور، وامتزج مع عضو التأنيث النباتي، وبعد ثلاثة

¹ ينظر: أوفيد: مسخ الكائنات، ص 217-218.

² ينظر: كامل: أشهر الأساطير في التاريخ، ص 101.

³ ينظر: فيروللو: أساطير بابل وكنعان، ص 106.

⁴ ينظر: السابق، ص 112.

أيام وجد فتاة صغيرة تجلس على الزهرة، فأخذها ولفها في ورقة من شجرة جوز الهند، وخلال ثلاثة أيام غدت الطفلة الصغيرة عروسا، وكانت تتبرز جواهر¹، ومثل هكذا معتقدات تجعل للنبات روحا ومشاعر تحاكي الإنسان، تظهر لدى شعوب كثيرة²، وبعضهم يعتقد أن البشر خرجوا من الشجر، مثل الغيريرو والسيكلوب والنيفهيين من أفريقيا وسيبيريا³، وبعض الأساطير السومرية ترى في الأزمنة الغابرة أن البشر ينمون كما تنمو الأعشاب تحت الأرض⁴، وأنكي الإله السومري يوجه غرابا؛ ليتبع عملية زراعية، تؤدي إلى خلق شجرة النخيل، الشجرة المقدسة⁵:

"وبعد كل ذلك انطلق الغراب...

وتسلق النخلة المورقة

وملاً فمه بالتمور ذات الحلاوة

وأخذ ينقر...

هذه النخلة وليدة مجرى الماء

الشجرة الأبدية لم يشهدها قبلاً أحد قط

لسانها سوف يمنحنا لباً...

مبارك هو وجودها في الأرض الملكية...

سوف توضع كتقدمات

¹ ينظر: ألبيديل: سحر الأساطير، ص72.

² ينظر: السابق، ص76-82

³ ينظر: السابق، ص241.

⁴ ينظر: السابق، ص241.

⁵ ينظر: الشواف: ديوان الأساطير، ج1، ص85.

وفي الأفستا الفارسية نُظِر للروح والجسد على أنهما "تحولا من هيئة النبات إلى هيئة الإنسان... ومذ ذاك الحين نميا مثل شجرة عالية، ثمارها عشرة أنواع من البشر"².

ومع هذه النظرة للأشجار فوق العادية، كانت مصدرا للعبادات والرموز الدينية القديمة، ففي مصر كانت شجرة البيبروس شجرة مقدسة، وكانت زهرة اللوتس دالة على الإله الشمس لأنه خرج منها، وعلى الإله نفرتوم ابن بتاح، وكان ينظر لشجرة الجميز على أنها رمز لآلهة السماء نوت، وكان جذعها مرتبطا بعبادة الإله أوزير³، كما "كان جذع الشجرة لدى الكنعانيين، ينصب في محراب الأم الكبرى عشتاروت، وتقدم له فروض العبادة باعتباره تجسيدا لإلهة الطبيعة"⁴، وكان لعبادة الأشجار بين السريان مكانة عظيمة، كما كانت في بلاد اليونان عامة⁵، والهند، وما زال أهل الريف في أوروبا يقومون بشعائر، لا تخفي طابعها العشتاري القديم من تقديس وتعظيم⁶، وما زال للشجرة مجدها الذي يتجسد بميلاد المسيح، والتي توضع في كل بيت وتزين بالأضواء⁷، مؤذنة بميلاد جديد، يحاكي ميلاد بوذا الذي جلس تحت الشجرة؛ فتحصل على الاستنارة الكاملة⁸، علاوة عن كون ولادته لم تتم من رحم امرأة، وإنما كانت في حديقة، وقد تعلق أمه بشجرة، فخرج الولد من خاصرتها اليمنى⁹.

ولم يكن عرب الجاهلية بمنأى عن هكذا اعتقادات، من تقديس الشجر، واعتقاد خصائص غير عادية لها، فأهل نجران وهم على دين العرب، كانوا "يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم، لها عيد في كل سنة،

¹ الشواف: ديوان الأساطير، ج1، ص89.

² عبد الرحمن: أفستا، ص810.

³ ينظر: الماجدي: الدين المصري، ص178.

⁴ السواح، فراس: لغز عشتار الآلهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، ط8، دار علاء الدين، دمشق، 2002م، ص112.

⁵ ينظر: الحوت، محمود سليم: في طريق الميثولوجيا عند العرب، ط1، مطبعة دار الكتب، بيروت، 1955م، ص111.

⁶ ينظر: السواح: لغز عشتار، ص113-114.

⁷ ينظر: السابق، ص115.

⁸ ينظر: السابق، ص247.

⁹ ينظر: إبياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج2، ص78.

إذا كان ذلك العيد، علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه، وحلي النساء، ثم خرجوا، فعكفوا عليها يوماً¹، ويرى بعضهم أن أفروديت اليونان، هي عشتروت السامية، والتي اتخذت النخلة شجرتها المقدسة لدى القبائل العربية²، "وتقدّس العرب للشجر والنبات عموماً ليس بالأمر الغريب سواء اعتبرنا أنهم من الساميين، وكانت النخلة شجرتهم المقدسة في مصر وبابل وفينيقيا والجزيرة، أو اعتبرنا الإطار الطبيعي الذي فيه كانوا يتحركون"³، ولا يخفى ما للنخلة من أهمية في أرض العرب، وقد روى القزويني عنها ما يجعلها في قرابة مع العربي، وتشابه مع الإنسان، فقال: شجرة مباركة لا توجد إلا في بلاد الإسلام، قال صلى الله عليه وسلم: أكرموا عماتكم النخل⁴، وإنما سمها عماتنا لأنها خلقت من فضلة طينة آدم عليه الصلاة والسلام، وأنها تشبه الإنسان من حيث استقامة قدها وطولها، وامتنياز ذكرها عن أنثاها، واختصاصها باللقاح، ولو قطع رأسها هلك، ولطعمها رائحة المني، ولها غلاف كالمشيمة التي يكون الولد فيها⁵، وينقل بما يوحى بأن لها روحاً تدرك وتشعر: "إذا لم يثمر شيء من النخل، يأخذ رجل فأساً، ويقرب منه، ويقول لغيره: إني أريد قطع هذه الشجرة؛ لأنها لا تثمر، فيقول الآخر: لا تفعل، فإنها تثمر في هذه السنة، فيقول الرجل: إنها لا تفعل شيئاً، ويضربها ضربتين أو ثلاثة، فيمسكه الآخر بيده، ويقول: لا تفعل فإنها شجرة حسنة، واصبر عليها هذه السنة، فإن لم تثمر فاصنع بها ما شئت، قال: فإذا فعل ذلك، فإن الشجرة تثمر ثمراً كثيراً، وكذلك غير النخل من الأشجار إذا فعل به هذا يثمر"⁶، وقال أيضاً عن استشعارها بالأنس من الذكران: "إذا قاربت بين ذكران النخيل وإنثاء، فإنها يكثر حملها؛ لأنها تستأنس بالمجاورة، وإذا قطع ألفها من الذكران، فلا تحمل شيئاً لفراقها"⁷، ومن تقاليد الجاهلية، كانت

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت. ج 1، ص 33.

² ينظر: عبد الحكيم: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، ص 343.

³ عجيبة: موسوعة أساطير العرب، ج 1، ص 277.

⁴ العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ط 1، تحقيق: عبد الحميد هندواي، المكتبة العصرية، 1420هـ، ج 1، ص 194، أخرجه أبو يعلى في مسنده، وفي مسنده ضعف.

⁵ القزويني، زكريا بن محمد: عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، ط 1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2000م، ص 224.

⁶ السابق، ص 224.

⁷ السابق، ص 224.

العرب إذا ولدت المرأة منهم أخذوا دم السمر، ويسمونه بحيض السمرة، وهو صمغه الذي يسيل منه، فينقطون منه بين عين النفساء، ويخطون على وجه الصبي خطأ، خوفاً عليه من الخطفة والنظرة، ويسمونه بالنفرات، ذلك لأن العربي كان يعبد الأشجار، ويرى فيها روح الشر مثل الحماسة، وهي شجرة شبيهة بالتين، وهو أحب الشجر إلى الحيات، أو العشر التي كانت العرب تظنها مسكن الشياطين قبيل الإسلام¹، ويقصدون بعض الأشجار ويقدمون لها طقوساً؛ اعتقاداً منهم أنها تجلب لهم النصر، فكانت "لكفار قريش شجرة عظيمة خضراء، يقال لها: ذات أنواط... يأتونها فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها، ويعكفون عندها يوماً"²، وكانوا إذا فرغوا من حجهم البيت، حجوا إليها أيضاً، ويدخلون إلى حرماها بغير زاد تعظيماً لها³، كذلك كانت آلهتهم العزى، شيطانة تأتي ثلاث سمرة بطن نخلة، فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة، بعث خالد بن الوليد، فقال له: إيت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمرة، فاعضد الأولى، فأتاها فعضدها، فلما جاء إليه، قال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: فاعضد الثانية، فأتاها فعضدها، ثم أتى النبي، فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها، فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها، دُبَّية بن حرمي الشيباني ثم السلمي، وكان سادنها... ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حُممة، ثم عضد الشجرة، وقتل دببة السادن، ثم أتى النبي، فأخبره، فقال: تلك العزى، ولا عزى بعدها⁴، وهذه الرواية تعكس معتقد تلك الحقبة؛ من حيث أن الشجر مسكن الأرواح والأشباح والآلهة، فهذه العزى تخرج من الشجرة على صورة امرأة حقيقية، وتقاديا لتحول شجرة الحديبية إلى شجرة مقدسة لدى المسلمين، أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بقطعها وإعدامها، بعدما بلغه أن الناس يكثرون قصدها وزيارتها،

¹ خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، ص 64.

² السابق، ص 121.

³ ينظر: الخطيب، محمد: الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2004م، ص 38.

⁴ الكلبي، هشام بن محمد السائب: كتاب الأصنام، ط4، تحقيق: أحمد زكي باشا، مطبعة الكتب المصرية بالقاهرة، 2000م، ص 25-

والتبرك بها، فخشى أن تعبد كما عبدت اللات والعزى¹، مما يؤكد أن لدى الناس في ذلك الزمان قابليات لمثل هكذا معتقدات، لن تتفك عن تعظيم.

وفي الكتاب المقدس نجد إشارة لتقديس الجذع، حيث يبين إرميا أن بيت إسرائيل وملوكهم ورؤساءهم وكهنتهم وأنبياءهم، كانوا يعتقدون بالجذع والحجر اعتقادات غير عادية، "قائلين للعود: أنت أبي، وللحجر: أنت ولدتني"²، والعود هو الخشب³ أو الجذع من الشجر⁴، و"ربما لم يقل ذلك مجازاً أو بلاغة، بل قصد أن يندد بمعتقدات حقيقية شاعت بين معاصريه، ونحن نعلم أن الهياكل الكنعانية القديمة، بما فيها هياكل يهوه، حتى زمن الإصلاحات الدينية التي قام بها حزقيا ويوشعيا، كان ما يعبد فيها جذعا مقدسا وحجرا مقدسا... أفليس طبيعياً أن نستنتج أن الجذع والحجر اللذين عدهما الإسرائيليون أباً وأماً لهم لاعتقادهم بالخرافات، هما الجذع المقدس (آشيراه)، والحجر المقدس (ماسيباه) اللذان كانا في الهيكل؟"⁵، ويندرج التابوت "الذي هو صندوق من خشب يحتوي لوائح الشريعة"⁶، تحت حالة التقديس التي تفضي إلى اعتقادات، تصدر عنه، وتُضخم قداسته؛ بحيث يتكلم ويمشي شأن الأشجار في المعتقدات التي سلف ذكرها، وقد تلقى موسى أمر يهوه بصناعة هذا التابوت من الخشب، ليوضع فيه اللوح الثاني⁷، الخشب الذي هو بعض من الشجر، وخاصة أن التوراة تصرح بكلام الرب لموسى من شجرة العليق، فالشجرة لها في ذاكرتهم ما لها من قدسية، "وظهر له ملاك الرب بلهب نار من وسط عليقة، فنظر، وإذا العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن؛ لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة؟ فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة،

¹ ينظر: الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص110.

² إرميا 2: 27.

³ ينظر: إبياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج1، ص151.

⁴ ينظر: فريزر: أدونيس، ص95.

⁵ السابق، ص95-96.

⁶ إبياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج1، ص224.

⁷ ينظر: هووك: منعطف المخيلة البشرية، ص126.

وقال: موسى موسى، فقال: هأنذا¹، وهو ما جاء في قوله تعالى: "فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يُمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (القصص: 30)، ومع هذا التابوت ذي الأصل الشجري، نجد مذبحاً عظيمة تصيب بيت شمس، لمجرد أنهم نظروا في التابوت²، وكأنه صندوق زيوس الذي كان مع المرأة الجميلة باندورا، والذي ما إن فتحه ايبيميثيوس حتى اندفعت الأمراض والهموم في جميع أركان الأرض³، فهو بمثابة تابو⁴، له من القدسية والعظمة ما لا ينبغي أن تمس.

وتستمر الاعتقادات في الأشجار مع الصوفية، من التكلم والمشي، فنقول التينة "للشبلي: أنا ليهودي، فيتركها، وشجرة تلحق بفيئها صوفياً؛ كي تقيه حمارة القيظ"⁵، والبعض يزعم "أن للنباتات أحاسيس أرق من أحاسيس البشر، وعواطف أرقى من عواطف الإنسان سيد المخلوقات، فهي تحزن وتبكي، وتفرح وتكره، وتحب وتستاء، وكأنها هي قد جاءت بعقل مدرك كعقول البشر"⁶، "والذين درسوا العلوم الطبيعية، في المدارس والمعاهد والجامعات لم يجدوا في كتبهم ما يشير من قريب أو بعيد إلى وجود جهاز عصبي للنبات، أو أنه يختزن الذكريات، أو يعي عالمه بدرجة أكفأ من الإنسان سيد المخلوقات"⁷.

نخلة مريم

لم تكن نخلة مريم في التفسير كأى نخلة، فقد ألبست العجائب، مع أن النص القرآني لم يقدم ما يجعلهم يضطرون لمثل هذه الغرائب التي تشهيهها الإسرائيليات، ينقل الرازي عن الزمخشري، على سبيل الموافقة، فيقول: "قال في الكشف: كان جذع نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس، ولا ثمر، ولا

¹ خروج 2:3-4.

² ينظر: هوك: منطف المخلية البشرية، ص 127.

³ ينظر: عبد الحكيم: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، ص 460.

⁴ ينظر: السابق، ص 470.

⁵ زيعور: الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص 148.

⁶ صالح: الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، ص 13.

⁷ السابق، 159. وينظر: السابق، ص 159-160.

خضرة، وكان الوقت شتاء"¹، ثم يوضح أن الثمر حصل للتو، فيقول: "قد تقدم أن الوقت كان شتاء، وأن النخلة كانت يابسة، واختلفوا في أنه هل أثمر الرطب، وهو على حاله (أي الجذع)، أو تغير، وهل أثمر مع الرطب غيره؟ والظاهر يقتضي أنه صار نخلة؛ لقوله: "بجذع النخلة"، وأنه ما أثمر إلا الرطب"²، فالرازي يذهب إلى أن الجذع صار نخلة في الحال، وعلى الفور أثمر بالرطب بسرعة ومباشرة.

لقد شاعت المرويات العجائبية في كثير من الأساطير، فهذا ديونيزوس يجلب الغرائب كلما تجلى لأتباعه، فنجد "الماء الذي ينبجس من الصخر، والأنهر التي تفيض باللبن والعسل، وفي تيروس تدفق (الصخر) غديرا، نبع من الخمر من يوم عيد الاحتفال به، وفي إيليس تركت ثلاث جفان فارغة أثناء الليل في غرفة مقفلة، وقد وجدت في الصباح ملأى بالخمر، وتأكدت معجزات مماثلة في أمكنة أخرى، وأكثرها شهرة كانت شجرات الكرمة، بيوم واحد ازدهرت، وانتجت العناقيد من العنب خلال بضع ساعات، وقد حصلت المعجزة في أمكنة مختلفة؛ لأن عددا من الكتاب تكلم عنها"³، بيوم واحد تنمو كثير من الأشجار، وفي بضع ساعات تجود بالثمار الطازجة، هذه مرويات استقرت في معتقدات عامة اليونان، وحدثت في كثير من الأماكن على حسب تصورهم، بفعل الإله ديونيسوس أو باخوس إله الخمر وحامي الأشجار، الإله المثمر والمزهر⁴، وفي أسطورة فايثوزا أتت على فكرة "شجرة نبتت فجأة"⁵، وفي أسطورة أخرى تحكي عن رجل اسمه أميتا، يزرع بذرة جوز، وبعد ثلاثة أيام فقط تظهر نخلة باسقة، وبعد ثلاثة أخرى تزهر النخلة⁶.

كذلك نجد في الأساطير اقتران الولادة بجذع النخلة أو الشجر، للإلهة ليتو، حيث فرّت بحملها إلى جزيرة "قاحلة لا يقر لها قرار، وكانت على الجزيرة نخلة، ولا شيء غيرها في الجزيرة، فشدت على

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 21، ص 204.

² السابق، م 11، ج 21، ص 206-207.

³ إلياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج 1، ص 446.

⁴ ينظر: ديونيسوس، <https://bit.ly/3Ge2zXY>

⁵ أوفيد: مسخ الكائنات، ص 57.

⁶ ينظر: أليبيديل: سحر الأساطير، ص 72. إلياد: مظاهر الأسطورة، ص 101.

جذع النخلة، وأنجبت ابنا وبنثا... واحد للنور والحياة، والأخرى عذراء دائما... فالنخلة الشجرة والإلهة الأنثى اتحدتا حيناً فكانت الحياة"¹، وفي أسطورة (مورها) نجد الشجرة تمخض فتلد، وهي "تتلوى وتتبعث عنها زفرات متصلة، وتتدى بفيض تلك الدموع المنهمرة، فخفت (لو كينا) تعين الشجرة في محنتها، ومسحت بيدها عليها، وهي تتمتع بتعويذة الوضع، فانشق الجذع، وخرجت من خلال اللحاء ثمرة تنبض بالحياة، وتصرخ صراخ وليد قد أهل، وأسرعت الحوريات، يتلقين الطفل، ووضعنه فوق العشب الغض بعد أن غسلته بدموع أمه"²، وفي قصة ولادة بوذا بعض التقاء مع ولادة مريم، حيث جاءها المخاض تحت شجرة، فبعدما تمنّت أن تمسك بغصن الشجرة، انحنى حتى صار في متناول يدها، فجاءها المخاض وهي واقفة، وممسكة بغصن الشجرة³، ومثل هذا الانحناء للشجر وتدني الثمار، يأتي في شريعة بالي، عندما رأى طفلان "الأشجار المثمرة عند سفح الجبل بكيا، للحصول على تلك الثمار، فلما رأت الأشجار النبيلة الباسقة الولدين باكيين، انحنت دانية لهما"⁴، ويلتقي هذا الحدث مع قصة مريم وابنها المسيح في الرحلة إلى مصر، "فلما رأت مريم شجرة قالت ليوسف، لنسترح قليلاً تحت ظل هذه الشجرة، فبادر يوسف، وأتى بها إلى تلك النخلة، وأنزلها من على دابتها، ولما جلست شخصت بعينيها إلى أعلى النخلة فرأتها ملاء بالثمر، فقالت ليوسف: يا ليتني آخذ قليلاً من ثمر هذا النخيل، فقال لها يوسف: يا للعجب! كيف تقولين هذا وأنت ترين أن أفرع هذه النخلة عالية جداً؟ لكني في غاية القلق بخصوص الماء، لأن الماء الذي في قربتنا قد نفذ، ولا يوجد مكان نملأها منه لنروي ظمأنا، ثم قال الطفل يسوع الذي كان متكئاً على صدر أمه مريم العذراء، ووجهه يبتسم: أيتها الشجرة، أهبطي أفرعك؛ لتنتعش أُمي بثمرك، وحالما سمعت النخلة هذا الكلام، أحنّت فوراً برأسها عند موطن قدمي مريم، فالتقط الجميع من الثمر الذي كان عليها، وانتعشوا، وبعد ذلك لما التقطوا جميع ثمرها، استمرت النخلة حانية رأسها؛ لأنها كانت تنتظر الارتفاع بأمر من قد أحنّت رأسها بأمره، فقال لها يسوع: ارفعي

¹ السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص712. ينظر: غريمال: الميتولوجيا اليونانية، ص43.

² أوفيد: مسخ الكائنات، ص226.

³ ينظر: تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص140.

⁴ تيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص141-142.

رأسك أيتها النخلة، وانشرحي صدرا، وكوني من أشجاري التي في جنة أبي، ولكن افتحي بجذورك الينبوع المستتر في الأرض، ولتقض المياه من هذا الينبوع، ففي الحال انتصبت النخلة، ونبعت من جذورها مجاري مياه زلال صافية باردة في غاية العذوبة، ولما رأوا مجاري المياه هذه، فرحوا فرحا عظيما جدا، فرووا ظمأهم مع جميع بهائمهم وخدمتهم، وحمدوا الله¹.

عصا تضيء

أورد الرازي "عن أنس أن أسيد بن حضير، ورجلا آخر من الأنصار، تحدثا عند رسول الله في حاجة لهما، حتى ذهب من الليل زمان، ثم خرجا من عنده، وكانت الليلة شديدة الظلمة، وفي يد كل واحد منهما عصا، فأضاءت عصا أحدهما لهما، حتى مشيا في ضوئها، فلما انفرق بينهما الطريق، أضاءت للآخر عصاه، فمشى في ضوئها حتى بلغ منزله"².

نجد نظير هذا الخبر في الموروث الجاهلي من رواية المسلمين، للتأكيد على التشابه في قابليات الذهن لهذه الأخبار في التدليل على كرامة من تحصل معه، وقدسية مقامه، وصحة المعتقد من وجهة نظرهم وقتذاك.

يروى ابن هشام في السيرة، عن قصة تحول أهل نجران من عبادة نخلة طويلة إلى النصرانية، حيث كان فيهم (فيميون) عبد على دين عيسى بن مريم، ابتاعه رجل من أشرافهم، فكان "إذا قام من الليل يتهدج في بيت له، أسكنه إياه سيده، يصلي، استسرج له البيت نورا حتى يصبح، من غير مصباح، فرأى ذلك سيده، فأعجبه ما يرى منه، فسأله عن دينه، فأخبره به، وقال له فيميون: إنما أنتم على باطل، إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع، ولو دعوت عليها إلهي الذي أعبدته لأهلكها، وهو وحده لا شريك له، قال: فقال له سيده: فافعل، فإنك إن فعلت دخلنا في دينك، وتركنا ما نحن عليه، قال: فقام فيميون،

¹ نيسدال: المصادر الأصلية للقرآن، ص 137-138.

² الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 21، ص 90. أخرجه البخاري (3805).

فتطهر، وصلى ركعتين، ثم دعا الله عليها، فأرسل الله عليها ريحا فجَعَفَتْها من أصلها، فأَلَقَتْها، فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه، فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم عليه السلام¹.

ويكثر لدى المسيحية تصوير قديسيهم في حالة من النور منذ أمد طويل²، وظهرت مثل هذه الهالات من النور على غير القديسين من متسلفي الجبال، وفوق رؤوس الحيوانات وهامات النباتات، أو صواري السفن أو القباب العالية، وكانت تعد من قبيل الكرامات والمعجزات³، غير أن العلم الحديث تمكن من تحليلها، وتجريبها وتكرارها في المعامل، وترجع في حقيقتها للكهرباء الجوية، تتخذ صورة "على هيئة كهرباء إستاتيكية، أو مستقرة، أي أنها لا تسري كما يسري التيار الكهربائي المعروف لنا جميعا، وهذا النوع من الكهرباء المستقرة، ليس بضار في أغلب الأحيان، فكل إنسان يستطيع أن يكتشف هذه الكهربائية في قميص من الألياف الصناعية، فإذا نزع القميص من على الجسد، فإن حركة نسيجه تعطي طرقات خفيفة ومسموعة، وهذه تعني تفريغ الشحنات الكهربائية التي اكتسبتها ألياف النسيج من الجسم الحي، وأحيانا ما ينجذب القميص إلى الجسم العاري، إذا كانت المسافة بينهما بضعة سنتيمترات، كما يمكن مشاهدة شرر دقيق ينطلق من القميص في الظلام الحال، إذا كانت العين قد تهيأت لفترة للرؤية في الظلام"⁴، فكانت مثل هذه الظواهر ملهمة لخيالات البعض؛ للتوسع في جعلها كرامة للقديسين، وتقف شاهدا على صحة المعتقد عندئذ.

وإن كانت مثل هذه الظاهرة الكونية ممكنة الحدوث أحيانا في ظروف محددة، فهي لا تستمر في الطبيعة إلا لوقت قصير جدا مثل البرق، خلافا للتجربة في المعمل الذي يعتمد مولدا خاصا لهذا النوع من الكهرباء في العصر الحديث⁵، علاوة عن أنها لا تتموضع بشكل يوحى بتدبير مُتَحَكِّم به في الطبيعة،

¹ ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص33.

² ينظر: صالح: الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، ص105.

³ ينظر: السابق، ص105-106.

⁴ السابق، ص107.

⁵ ينظر: السابق، ص107.

ويبلغ المخيال مداه عندما تتكاثر المرويات عن الأنوار التي ترى عيانا على قبور الأولياء والصالحين والأئمة¹، وتنتشر الأخبار بها، وتدون في بعض الكتب²، والانتشار ليس دليلا على الصحة، فليس كل ما هو منتشر بين الناس، ويُحدّث به الجميع، ويكون محل إجماعهم صحيحا، فإن هذا قانون من قوانين التفكير العلمي الذي يمنع من الخضوع لسلطة المنتشر من الآراء والأفكار والمعتقدات، فإن الكثرة مذمومة غالبا في القرآن³.

انفجار الحجر المحمول بعيون الماء

فسر الرازي قوله تعالى: "وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" (البقرة: 60)، فقال: "الإنعام بالماء في التيه أعظم من الإنعام بالماء المعتاد؛ لأن الإنسان إذا اشتدت حاجته إلى الماء في المفازة، وقد انسدت عليه أبواب الرجاء؛ لكونه في مكان لا ماء فيه ولا نبات، فإذا رزقه الله الماء من حجر ضرب بالعصا، فانشق، واستقى منه، علم أن هذه النعمة لا يكاد يعدلها شيء من النعم"⁴، وروى "أنهم كانوا يحملون الحجر مع أنفسهم؛ لأنه صار معدا لذلك... ينفجر لهم في كل وقت"⁵، وذكر اختلافهم في الحجر؛ بين حجر معلوم محمول معهم، أو أي حجر، فقال: "اللام في "الحجر" إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم، فروي أنه حجر طوري، حمله معه، وكان مربعا، له أربعة أوجه، ينبع من كل وجه ثلاثة أعين، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى ذلك السبط، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا، وقيل: اهبط مع آدم من الجنة، فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب، فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل، إذ رموه بالأدرة ففر به، فقال له جبريل: يقول الله تعالى: ارفع هذا الحجر فإن لي فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته، وإما للجنس أي

¹ ينظر: العدوي: الإيمان بين الغيب والخرافة، ص 161-162.

² ينظر: السابق، ص 164.

³ السابق، ص 164.

⁴ الرازي: التفسير الكبير، م 2، ج 3، ص 102.

⁵ السابق، م 2، ج 3، ص 102.

اضرب الشيء الذي يقال له: الحجر، وعن الحسن: لم يأمره أن يضرب حجرا بعينه. قال: وهذا أظهر في الحجة، وأبين في القدرة، وروي أنهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة، فحمل حجرا في مخلاته، فحينما نزلوا ألقاه، وقيل: كان يضربه بعصاه، فينفجر، ويضربه بها، فيبيس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشا، فأوحى الله إليه: لا تفرع الحجارة، وكلمها تطعك، واختلفوا في صفة الحجر، فقيل: كان من رخام، وكان ذراعا في ذراع، وقيل: مثل رأس الإنسان، والمختار عندنا تقويض علمه إلى الله تعالى¹، والرازي فوض علم الحجر من حيث إنه حجر معلوم محمول أو أي حجر، وما له من مواصفات شكلية، وردّ على من تساءل: "كيف يعقل خروج المياه العظيمة من الحجر الصغير؟" الجواب: هذا السائل إما أن يسلم وجود الفاعل المختار أو ينكره، فإن سلم فقد زال السؤال، لأنه قادر على أن يخلق الجسم كيف شاء كما خلق البحار وغيرها، وإن نازع فلا فائدة له في البحث عن معنى القرآن والنظر في تفسيره².

ويشرح الرازي كيف تكوّن الماء في الحجر، فيقول: "أقولون: إن ذلك الماء كان مستكنا في الحجر ثم ظهر، أو قلب الله الهواء ماء، أو خلق الماء ابتداء؟" والجواب: أما الأول فباطل؛ لأن الظرف الصغير لا يحوي الجسم العظيم إلا على سبيل التداخل، وهو محال، أما الوجهان الأخيران فكل واحد منهما محتمل، فإن كان على الوجه الأول فقد أزال الله تعالى اليبوسة عن أجزاء الهواء، وخلق الرطوبة فيها، وإن كان على الوجه الثاني فقد خلق تلك الأجزاء، وخلق الرطوبة فيها. واعلم أن الكلام في هذا الباب كالكلام فيما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات، وقد ضاق بهم الماء، فوضع يده في متوضئه، ففار الماء من بين أصابعه حتى استكفوا³، والتي لمحمد صلى الله عليه وسلم أقوى؛ لأن نبوع الماء من الحجر معهود في الجملة، أما نبوعه من بين الأصابع فغير معتاد البتة، فكان ذلك أقوى⁴.

¹ الرازي: التفسير الكبير، م2، ج3، ص103.

² السابق، م2، ج3، ص104.

³ السابق، م2، ج3، ص104-105. أخرجه مسلم (3013)،

⁴ الرازي: التفسير الكبير، م2، ج3، ص105.

وأشار الرازي لموقف أبي مسلم الأصفهاني الذي بدا فيه أن نزول الماء كان بفعل الاستسقاء من خلال المطر، وانضاف إليه تفجير ينابيع من الصخور، فقال: "أنكر أبو مسلم حمل هذه المعجزة على أيام مسيرهم إلى التيه، فقال: بل هو كلام مفرد بذاته، ومعنى الاستسقاء طلب السقيا من المطر على عادة الناس إذا أقحطوا، ويكون ما فعله الله من تفجير الحجر بالماء فوق الإجابة بالسقيا، وإنزال الغيث"¹، مع أن الرازي قال بانتقاء الدليل من الآية على حدوث ذلك في التيه أم لا، لكنه ذهب في اختياره إلى أن هذا الحدث وقع في التيه، فقال: "والحق أنه ليس في الآية ما يدل على أن الحق هذا أو ذاك، وإن كان الأقرب أن ذلك وقع في التيه، ويدل عليه وجهان، أحدهما: أن المعتاد في البلاد الاستغناء عن طلب الماء إلا في النادر، الثاني: ما روي أنهم كانوا يحملون الحجر مع أنفسهم، لأنه صار معدا لذلك، فكما كان المن والسلوى ينزلان عليهم في كل غداة، فكذلك الماء ينفجر لهم في كل وقت، وذلك لا يليق إلا بأيامهم في التيه"².

وبالعودة إلى التوراة من سفر الخروج، نجد هذا الحدث مع بعض الاختلافات، فبعد خروج موسى ببني إسرائيل من بحر سوف، ساروا ثلاثة أيام في البرية، ولم يجدوا ماء، فجاءوا عين ماء فوجدوها مرة، فأوحى الله لموسى أن يضع فيها شجرة ماء، فغيرت ماءها، وصارت ماء عذبا، ثم نزلوا واحة، يقال لها: إيليم، وهناك وجدوا اثنتي عشرة عين ماء، وسبعين نخلة³، فهنا نجد ذكر عدد عيون الماء الاثنتي عشرة، على عدد الأسباط، ولكنها دون ضرب بالعصا، ودون انفجار في الحال، بل هي موجود قبلا، وتحيطها النخلات، ولكن وحي الله لموسى أرشدهم للماء فشربوا، وكأن استسقاء موسى ربه، هو تعبير عن هديه له إلى مواضع الماء في البرية، علما أن التوراة تعدّ سير بني إسرائيل "على موجب أمر الرب"⁴.

¹ الرازي: التفسير الكبير، م2، ج3، ص102.

² السابق، م2، ج3، ص102.

³ ينظر: خروج15: 22-27.

⁴ خروج17: 1

وفي مرحلة تالية ارتحل بنو إسرائيل من برية سين، ونزلوا موقعا، يقال له: رفيديم، ولم يكن فيه ماء للشرب، فعطشوا، وخاصموا موسى عليه السلام، وتذمروا، "وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشيننا بالعطش، فصرخ موسى إلى الرب قائلاً: ماذا أفعل بهذا الشعب؟ بعد قليل يرجعونني، فقال الرب لموسى: مرّ قدام الشعب، وخذ معك من شيوخ بني إسرائيل، وعصاك التي ضربت بها النهر، خذها في يدك واذهب، ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب، فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب، ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل، ودعا اسم الموضع مَسَّةَ وَمَرِيَّةَ، من أجل مخاصمة بني إسرائيل، ومن أجل تجريبيهم للرب قائلين: أفي وسطنا الرب أم لا؟"¹، في هذا النص نجد فكرة ضرب العصا بالصخرة، والرب، حسب النص، واقف هناك على الصخرة، فغاية ذلك النص أن يبين أن الله أرشد موسى لموضع الماء المتفجر عيوننا من صخور جبل حوريب، أو ارشده إلى "كسر قطعة من سطح جرف جبلي، لإعطاء منفذ لينبوع ماء تحت الأرض"².

لقد جاء في أسطورة أكيس الإغريقية، أن ينبع ماء صاف تفجر من صخرة³، بعدما ضرب بها الكيكلوبيس الذي طارد أكيس، "وتفجرت المياه صاخبة من جوف الصخرة، وفجأة، ويا لها من معجزة، برز شاب من النبع"⁴، وفي هذه الأساطير يكثر استخدام العصا السحرية القادرة على خلق العجائب إذا ضربت بشيء أو مسته، فعصا ميركوريس تصيب من تمسه بالنعاس⁵، وعصا كيركي إذا مست أحدهم حولته إلى خنزير⁶، وإذا ضربت رؤوسهم بعصاها معكوسة أطلت أثرها في المرة الأولى فأعادتهم كما كانوا⁷، وفي أسطورة ميداس يمكن للمشيمة إذا تراققت مع لمس اليد أن تفعل فعل العصا السحرية،

¹ خروج 17: 3-7.

² آش: المعجزات، ص 51.

³ ينظر: أوفيد: مسخ الكائنات، ص 288.

⁴ أوفيد: مسخ الكائنات، ص 288، ص 288.

⁵ ينظر: السابق، ص 242. وينظر: غريمال: الميتولوجيا اليونانية، ص 50.

⁶ ينظر: أوفيد: مسخ الكائنات، ص 299.

⁷ ينظر: السابق، ص 300.

فتحول الحجر أو العمود أو التفاحة أو سنابل القمح أو الماء إلى ذهب¹، ففكرة القدرة المرتبط بالعصا أو بالضرب واللمس حاضرة في الأساطير، وغير مستهجنة في العقل البشري في مرحلته الغابرة.

حجر موسى الهارب

للحجارة حالات معلومة من الخصائص؛ أبرزها الصلادة عامة مع تفاوت في القسوة، ولا يعرف عن الحجر أن يكون حجرا وهو في حالة طين، بل العكس، فإذا قسا الطين، قيل: تحجر، أي صار كالحجر، والله سبحانه شبه قلوب بني إسرائيل بالحجارة في قسوتها، فقال: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً" (البقرة: 74)، كذلك تعرف الحجارة بأنها تفتقد خاصية الحركة الإرادية كالحيوانات، أو النمو المعتاد في النباتات والأشجار، وعندما نجعل للحجر القدرة على الانتقال الذاتي والحركة الإرادية، أو نجعل له خاصية ليونة الطين حتى تغوص فيه القدم في لحظة ما دون أسباب علمية، ولكن ثمة روايات تأتي على غير العادة، ومما ذكره الرازي في تفسيره حجر موسى الذي أمسك الثوب، وفر به إلى وسط بني إسرائيل، وكذلك حجر إبراهيم الذي اتخذ مصعدا، فغاصت قدماه فيه، ولأن إبراهيم.

يقول الرازي مشيرا إلى الحجر الذي فر بثوب موسى، وناقلا عن الحجر المحمول الذي كان يضرب به موسى العصا، فيتفجر بعيون الماء: "هو الحجر الذي وَضَعَ عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة، ففر به، فقال له جبريل، يقول الله تعالى: ارفع هذا الحجر، فإن لي فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته"²، والرازي في إشارته هذه، إنما يُحيل على الحديث النبوي المتفق عليه، ففي رواية مسلم، عن أبي هريرة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى سواة بعض، وكان موسى عليه السلام، يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، قال: فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، قال: فجمع موسى بآثره،

¹ أوفيد: مسخ الكائنات، ص 238.

² الرازي: التفسير الكبير، م 2، ج 3، ص 103.

يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سواة موسى، قالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام الحجر بعد، حتى نظر إليه، قال: فأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضربا، قال أبو هريرة: والله إنه بالحجر ندب ستة أو سبعة، ضرب موسى بالحجر¹، وفي رواية البخاري: "إن موسى كان رجلا حياء ستيرا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده؛ إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوما وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ، أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه، فلبسه، وطفق بالحجر ضربا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه؛ ثلاثا أو أربعاً أو خمسا، فذلك قوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا² وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا"³، ويتجلى من خلال هذا الأثر إسقاطات غير عادية على الحجر، فهو يأخذ الثوب، ويفر به راكضا، عالما بالوجهة التي يسلكها، والمكان الذي يقف به، إلى ملأ من بني إسرائيل، ثم يتعرض الحجر لعقاب من موسى بالعصا، فتظهر ندب فيه من أثر الضرب في مشهد عجائبي، ولكن بني إسرائيل لا تستعجب من هذا الحجر الهارب بالثوب، والذي لا يستجيب لنداء موسى العريان بالتوقف إلى أن يتوقف عندهم، ولكن يلفت انتباههم سلامة موسى مما ظنوه فيه من عيب؛ لأنه كان دائم الستر عنهم أثناء الاغتسال، فأثار الظن السوء في عورته، ولم تثر هذه العجبية من مسك الحجر للثوب والجري به عجب بني إسرائيل،

فيا عجا من بني إسرائيل!

كذلك عرض الرازي في تفسيره الحجر الذي كان يتخذه إبراهيم مصعدا لبناء الكعبة، أو حين اغتسل أو للأذان، فإن الرازي نقل ثلاثة آراء فيه، الأول: "لما ارتفع بنيان الكعبة، وضعف إبراهيم عن رفع

¹ النووي: شرح صحيح مسلم، ج15، ص126.

² سورة الأحزاب، الآية: 69.

³ العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج6، ص538-539.

الحجارة، قام على هذا الحجر، فغاصت فيه قدماه، والثاني: أنه جاء زائراً من الشام إلى مكة، وكان قد حلف لامراته أن لا ينزل بمكة، حتى يرجع، فلما وصل إلى مكة، قالت له أم إسماعيل: انزل، حتى نغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر، فوضعت على الجانب الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت أحد جانبي رأسه، ثم حولته إلى الجانب الأيسر، حتى غسلت الجانب الآخر، فبقي أثر قدميه عليه، والثالث: أنه هو الحجر الذي قام إبراهيم عليه عند الأذان بالحج، قال القفال، رحمه الله: ويجوز أن يكون إبراهيم قام على ذلك الحجر في هذه المواضع كلها¹، ويقول الرازي: "هو الحجر الذي وضع إبراهيم قدمه عليه، فجعل الله ما تحت قدم إبراهيم عليه السلام من ذلك الحجر دون سائر أجزائه كالطين، حتى غاص فيه قدم إبراهيم عليه السلام، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يظهره إلا على الأنبياء، ثم لما رفع إبراهيم قدمه عنه خلق فيه الصلابة الحجرية مرة أخرى، ثم إنه تعالى أبقى ذلك الحجر على سبيل الاستمرار والدوام"²، ويقول: "إن مقام إبراهيم اشتمل على الآيات، لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية، لأنه لأن من الصخرة ما تحت قدميه فقط"³.

و يعلل الرازي، غياب تراكم الحجارة الصغيرة المعروفة بالجمرات، بحجة رفعها إلى السماء، يقول: "قلة ما يجتمع فيه من حصى الجمار، فإنه منذ آلاف سنة، وقد يبلغ من يرمي في كل سنة ستمئة ألف إنسان، كل واحد منهم سبعين حصاة، ثم لا يرى هناك إلا ما لو اجتمع في سنة واحدة لكان غير كثير، وليس الموضع الذي ترمى إليه الجمرات مسيل ماء، ولا مهب رياح شديدة، وقد جاء في الآثار أن من كانت حجته مقبولة، رفعت حجارة جمراته إلى السماء"⁴.

¹ الرازي: التفسير الكبير، م4، ج8، ص166.

² السابق، م4، ج8، ص160.

³ السابق، م4، ج8، ص165.

⁴ السابق، م4، ج8، ص160.

الحجر يتكلم

الحجارة ليست مما تصنف في دائرة الحيوانات، وإنما في دائرة الجمادات، والتي من صفاتها انتفاء الحس والحركة على شاكلة الحيوان، لكن الرازي أورد لها حوادث يجعلها تخالف واقعها المعهود، فتمشي وتلين، ورفع قدرتها الجمادية لأخص ما يميز الإنسان، وهو النطق مع التمييز، فأشار إلى أن الحجارة سلمت على النبي الكريم، و"كانت تقول: السلام عليك يا رسول الله"¹، معللا هذا بقوله: "غير ممتنع أن يُخلق في بعض الحجارة عقل وفهم، حتى تحصل الخشية فيه"²، والرازي في الخبر السابق يشير إلى الحديث النبوي كما رواه مسلم، "إني لأعرف حجرا بمكة، كان يُسلم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن"³، وشرحه النووي، فقال: "وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجمادات"⁴، ويجعل الله فيه تمييزا، مثل الحجر الذي فر بثوب موسى، وكلام الذراع المسمومة وأشباه ذلك⁵، وروي في مثل ذلك بشكل أعم، شمل الجبل، قال علي رضي الله عنه: "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله"⁶، ويمثل كلام الحجر، ما روي عن أبي ذر في تسبيح الحجارة الصغيرة، قال: "إني لشاهد عند النبي صلى الله عليه وسلم في حلقة، وفي يده حصى فسبحن في يده، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي إلى أبي بكر، فسبحن مع أبي بكر، سمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن إلى النبي، فسبحن في يده، ثم دفعهن النبي إلى عمر، فسبحن في يده، وسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي إلى عثمان بن عفان، فسبحن في يده، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا"⁷، ولا يمنع مثل هذه المرويات أن يتجاوز الكلام الحجارة من صنف الجمادات، لتشمل التربة بما فيها من حجارة

¹ الرازي: التفسير الكبير، م2، ج3، ص141.

² السابق، م2، ج3، ص141.

³ النووي: شرح صحيح مسلم، ج15، ص26.

⁴ السابق، ج15، ص26.

⁵ ينظر: السابق، ج15، ص26.

⁶ الموسوعة الحديثية: <https://bit.ly/3pWSLee>. أخرجه الترمذي (3630).

⁷ إسلام ويب: <https://bit.ly/3IXPQdS>. أخرجه الطبراني في "الأوسط" (1266).

وغيرها، من خلال القبر، فينقل الرازي من كرامات أبي بكر رضي الله عنه، أنه لما حملت جنازته إلى باب قبر النبي، ونودي بالسلام عليك يا رسول الله، هذا أبو بكر بالباب، فإذا الباب قد انفتح، وإذا بهاتف يهتف من القبر: أدخلوا الحبيب إلى الحبيب"¹.

¹ الرازي: التفسير الكبير، م 11، ج 21، ص 88.

الخاتمة

بعد قراءة تفسير الفخر الرازي، المعروف باسم التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، قراءةً تمحيصية، استبان لي مدى تسلل الأسطورة إلى التفسير، حتى لدى الرازي الذي عُرف برأس العقليات وسيد الحكماء، من خلال مسوغات الرواية والأثر، أو الفهم المحكوم بالمعارف القديمة المستولية عليها الأسطورة، وفيه ما يصدر عن الإسرائيليات، أو فهم الرواة الذين لم يكونوا بمعزل عن ثقافة عصرهم، وموروثاتهم القديمة، مما أخضع التفسير لكثير من التأثيرات الأسطورية لحضارات عديدة، وثقافات مختلفة، ظلت تتدفق عليه، بمناهج معرفتها العجائبية، وتسكب فيه غثها وسمينها.

إن ما تناولته الدراسة من قضايا كثيرة داخل بنية التفسير، عكست ضرورة إدراك أن بعض ما دخل للثقافة الإسلامية من موروثات قديمة، ليست أصيلة من تعاليم الإسلام نفسه في بعض جوانبها، وأنها تسلت إلى فهم النص القرآني وتأويله تحت وطأة قابليات ذهن المعرفة وقتذاك، التي كانت سائرة في الأنساق الثقافية للمجتمعات حينها، ومستولية على آليات التفكير في نطاق زمني ومكاني محددين، ولأن العقل يحتله الأسبق إليه ظل يضغط على المنتج المعرفي من زاوية المدلول السائد، في حين أن النص القرآني عابر للزمان والمكان، وصالح إلى يوم القيامة، تتبعث معانيه في سيرورة أبدية، تلبي التراكم المعرفي والتطور العقلي، فلا يتعاضد مع الأوهام، ولا يتضاءل مع انتشار العلم، بل يتعالى مع الحقائق، ويسمو مع البرهان.

إن الله سبحانه أمرنا بتدبر القرآن الكريم، لإنشاء تصورات صحيحة، وهدم التصورات الباطلة التي تستحكم أحياناً في الأذهان، فتؤثر على الأمة والمجتمع سلباً، وتعيق تقدمه بخروقات الروايات الإسرائيلية الواهية فتجلب الأمراض للأمة، وتشوش نقاء الفطرة، وتأتي هذه الدراسة لتسهم في فهم أعمق للقضايا المطروحة، وتفتح آفاقاً أرحب للبحث بعيداً عن الانفعال والتشنج، ووهم امتلاك الحقيقة المطلقة في تدبر النص القرآني.

وخلصت هذه الدراسة إلى بعض النتائج والتوصيات، وأهمها:

- المعرفة الدينية الأسطورية قديمة، تشتهيها النفس البشرية، وتجعلها بعجائبيتها دليلاً على الصلة بالآلهة، لمن تظهر على يده سواء كانت صلته بآلهة خيرة أم شريرة، وهذه المعرفة قد امتصتها مسطورات الأوائل، وتدفتت في الموروثات الدينية للأمم بعد رحيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
- تخلل التفسير إسرائيليات، جاءت في نماذج معرفية أسطورية، أثرت على منهج تناول المفسرين للنصوص المقدسة، وامتدت هذه الإسرائيليات لتستوعب أساطير فارسية وبابلية ومصرية وهندية ويونانية.
- الدراسة أبرزت معارف أسطورية منذ آلاف السنين، كانت لقي أثرية خبيئة قبل عصرنا، في ألواح مسمارية ولغة هيروغليفية مصرية، وظلت مشتتة سائرة بين الأمم في صورتها الروائية.
- رصدت الدراسة آراء لعلماء التفسير في القديم والحديث في بعض القضايا، جاءت خلاف التأويل السائد المتأثر بالروايات الإسرائيلية، أو الموروث الإخباري، فكانت بعيدة عن المفهوم الأسطوري، ولكنها لم تحظ بالانتشار والقبول، نظراً لأنها خارج المعرفة المستساغة حينذاك، ومنفكة عن دائرة التفكير النسقي المسيطر الذي في العادة يحكم الثقافة الجمعية.
- في أحايين كثيرة نجد المفسرين الأقدمين أكثر جرأة وميلاً لاختيار تأويلات تتفق مع العقل بعد عرضهم الأمن للعديد من الآراء، في حين بعض الذين يقدمون التفسير في الحديث يذهبون لخيارات بعيدة عن العقل فيزكونها وكأنها الرأي الوحيد، مع أن المتوقع في ظل التقدم العلمي والعقلي المعاصر أن يتطور التفسير مستفيداً من التطور المعرفي الهائل؛ الأمر الذي يمكن أن يوصف هذا التوجه في التفسير المعاصر بالنكسة.
- الأسطورة لا تعني الباطل دائماً، ففيها من المعتقدات الدينية الصحيحة، وفيها من المدخولات التراثية المغلوطة للأمم؛ مما علقَ بمكتوبات الأوائل من دخن الأهواء.

- هناك حاجة ملحة لأبحاث إضافية في هذا الصدد، تُنَزِّه القرآن الحكيم عن الفهوم الأسطورية، وتجلّيه عن الإسرائيليات، ، وتُفَعِّل المنهج العلمي العقلاني بتدبر آي الذكر الحكيم، خاصة والمعرفة متطورة، والقرآن صالح لكل زمن.

المراجع العلمية

1. القرآن العظيم
2. الكتاب المقدس
3. كنزأربا المقدس عند الصابئة
4. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم: الكامل في التاريخ، تحقيق: خيرى سعيد، دار التوفيقية للطباعة، القاهرة، 2004م.
5. الأحمد، سامى سعيد: المعتقدات الدينية في العراق القديم، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، 2013م.
6. إسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي، ط1، دار التنوير، بيروت، 2005م.
7. إسلانجيه، أوليفيه: مقدمة في علم الفلك، ط1، ترجمة: طارق كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2017م.
8. آش، جفري: المعجزات، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011م.
9. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م.
10. ألبيدل، م.ف.: سحر الأساطير دراسة في الأسطورة التاريخ الحياة، ط1، ترجمة: حسان ميخائيل إسحق، دار علاء الدين، دمشق، 2005م.

11. إلياد، مرسيا: **مظاهر الأسطورة**، ط1، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، 1991م.
12. إلياد، ميرسيا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ط1، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، 1987م.
13. أمين، أحمد: **ضحى الإسلام**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2003م.
14. **فجر الإسلام**، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م.
15. أوفيد، الشاعر: **مسح الكائنات**، ط3، ترجمة: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1992م.
16. بدج، والس: **برت إم هرو كتاب الموتى الفرعوني**، ط1، ترجمة: فيليب عطية، مطبعة مدبولي، القاهرة، 1988م.
17. البدوي، خليل: **الموسوعة الفلكية**، ط1، دار عالم الثقافة، عمان، 1999م.
18. تشرني، ياروسلاف: **الديانة المصرية القديمة**، ط1، ترجمة: أحمد قذري، دار الشروق، 1996م.
19. تيسدال، سان كلير: **المصادر الأصلية للقرآن**، ط1، ترجمة: عادل جاسم، منشورات الجمل، بغداد، 2019م.
20. ابن تيمية، نقي الدين أحمد بن عبد الحليم: **مقدمة في أصول التفسير**، تحقيق: عدنان زرزور، ط3، دار القرآن الكريم، بيروت، 1979م.

21. النبوات، تحقيق: عبد العزيز الطويان، ط1، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 2000م.
22. الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1968م.
23. جمعية التجدي الثقافية الاجتماعية، قسم الدراسات والبحوث: الأسطورة توثيق حضاري، ط1، دار كيوان، دمشق، 2009م.
24. الجوزي، ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي: الطب الروحاني، ط1، تحقيق: عبد الله بدران، دار الخير، بيروت، 1992م.
25. الجويني، عبد الملك: كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق: محمد موسى وزميله، مكتبة الخانجي، مصر، 1950م.
26. الجيلي، عبد الكريم: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، ط1، تحقيق: صلاح عويضه، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
27. ابن أبي حاتم، عبد الرحمن: آداب الشافعي ومناقبه، ط1، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
28. الحاجي، محمد عمر: موسوعة التفسير قبل عهد التدوين، ط1، دار المكتبي، دمشق، 2007م.
29. الحوت، محمود سليم: في طريق الميثولوجيا عند العرب، ط1، مطبعة دار الكتب، بيروت، 1955م.
30. خان، محمد عبد المعيد: الأساطير العربية قبل الإسلام، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م.

31. الخشت، محمد عثمان: **تطور الأديان قصة البحث عن الإله**، ط1، مكتبة الشروق الدولية، مصر الجديدة، 2010م.
32. الخضري، محمد: **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**، ط2، تحقيق: علي بلطجي، دار الخير، دمشق، 1988م.
33. الخطيب، عبد اللطيف: **معجم القراءات**، ط1، دار سعد الدين، دمشق، 2002م.
34. الخطيب، محمد: **الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية**، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2004م.
35. ابن خلدون، عبد الرحمن: **مقدمة ابن خلدون**، دار الفكر، د.ت.
36. خلف، مؤيد أحمد سعيد: **الموروث الأسطوري في تفسير ابن كثير**، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2015م.
37. ابن خلكان، أبو العباس: **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، د.ط، دار صادر، بيروت، 1978م.
38. خليل، خليل أحمد: **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**، الأسوار، عكا، 1973م.
39. ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد: **من عاش بعد الموت**، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1993م.
40. دويون، أندريه، سومر مارك فيلونكو: **التوراة كتابات ما بين العهدين**، ط1، ترجمة: موسى الخوري، دار الطليعة، دمشق، 1999م.

41. الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997م.
42. سير أعلام النبلاء، ط11، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومأمون الصاغري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.
43. الذهبي، محمد حسين: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، د.ت.
44. الرازي، محمد بن عمر: تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، 1995م.
45. الربيعو، تركي علي: الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992م.
46. ابن رشيق، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2001م.
47. أبو رية، محمود: أضواء على السنة المحمدية، ط6، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
48. شيخ المضيرة أبو هريرة، ط4، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1993م.
49. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، د.ت.
50. زكي، أحمد كمال: الأساطير دراسة حضارية مقارنة، ط2، دار العودة، بيروت، 1979م.
51. في سبيل موسوعة علمية، ط5، دار الشروق، بيروت، 1992م.

52. أبو زهرة، محمد: **المعجزة الكبرى القرآن**، دار الفكر العربي، مصر، د.ت.
53. زيدان، يوسف: **اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، ط2، دار الشروق، القاهرة، 2010م.
54. زيعور، علي: **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم**، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1984م.
55. السعفي، وحيد: **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، ط1، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 2006م.
56. السواح، فراس: **الأسطورة والمعنى**، ط2، دار علاء الدين، دمشق، 2001م.
57. دين الإنسان، ط4، دار علاء الدين، دمشق، 2002م.
58. لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، ط8، دار علاء الدين، دمشق، 2002م.
59. مغامرة العقل الأولى، ط13، دار علاء الدين، دمشق، 2007م.
60. سيرنج، فيليب: **الرموز في الفن الأديان الحياة**، ط1، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق، 1992م.
61. شاهين، نقولا، وزملاؤه: **الموسوعة العلمية الميسرة**، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م.
62. شبيرو، ماكس: **معجم الأساطير**، ط1، ترجمة: حنا عبود، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1999م.
63. شلبي، أحمد: **المسيحية**، ط10، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1998م.
64. شلتوت، محمود: **الفتاوى دراسة لمشكلات المعلم المعاصر في حياته اليومية والعامة**، ط14، درار الشروق، القاهرة، 1987م.

65. أبو شهبة، محمد بن محمد: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ط4، مكتبة السنة، القاهرة، 1408هـ.
66. الشواف، قاسم: ديوان الأساطير سومر وأكاد وأشور، ط1، دار الساقى، بيروت، 1997م.
67. صالح، عبد المحسن: الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، عالم المعرفة، الكويت، 1990م.
68. الصليبي، كمال: خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، ط6، دار الساقى، بيروت، 2006م.
69. الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط1، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، 2001م.
70. طريه، جرجي أنطونيوس: الوجدية وأثرها في الأندلس، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م.
71. الطويل، توفيق: الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي، مصر، 1947م.
72. ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
73. عباس، إحسان: ملامح يونانية في الأدب العربي، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993م.
74. عبد الحكيم، شوقي: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.
75. عبد الرحمن، خليل: أفسنا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، ط2، روافد للثقافة والفنون، دمشق، 2008م.
76. العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ط1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، 1420هـ.

77. العجمي، فالح: **صحف إبراهيم جذور البراهيمية من خلال نصوص الفيدا**، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006م.
78. عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها**، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1994م.
79. العدوي: خميس بن راشد، خالد بن مبارك الوهبي: **الإيمان بين الغيب والخرافة**، ط1، مكتبة الغبراء، عُمان، 2007م.
80. ابن عربي، محيي الدين: **فصوص الحكم**، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
81. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م.
82. عسكر، قصي الشيخ: **أساطير العرب قبل الإسلام**، ط1، دار معد، دمشق، 2007م.
83. علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م.
84. العمري، أحمد خيرى: **السيرة مستمرة**، ط1، عصير الكتب للنشر والتوزيع، مصر، 2018م.
85. غبرائيل، ميخائيل: **أساطير الأولين**، مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1894م.
86. غريمال، بيار: **الميتولوجيا اليونانية**، ط1، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت، 1982م.
87. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **الاقتصاد في الاعتقاد**، ط1، الحكمة للطباعة والنشر، دمشق، 1994م.

88. غيربر: أساطير الإغريق والرومان، ترجمة: حسني فريز، دائرة الثقافة والفنون، عمان، 1976م.
89. فريزر، جيمس: أدونيس أو تموز دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة، ط2، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979م.
90. فلوتن، فان: السيادة العربية والشيوعية والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1934م.
91. فوكوياما، فرانسيس: نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية، ط1، ترجمة: أحمد مستجير، سطور، مصر، 2002م.
92. فولتير: رسالة في التسامح، ترجمة: هنرييت عبودي، ط1، دار بترا، دمشق، 2009م.
93. فيروللو، شارل: أساطير بابل وكنعان، ترجمة: ماجد خيربك، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، 1990م.
94. القرطبي، محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ط1، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006م.
95. القزويني، زكريا بن محمد: عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2000م.
96. قصاب، وليد: ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، ط1، دار العلوم، الرياض، 1981م.
97. القمني، سيد: الأسطورة والتراث، ط2، سينا للنشر، القاهرة، 1993م.

98. كامل، جوزف: قوة الأسطورة، ط1، ترجمة: حسن صقر وزميله، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، 1999م.

99. كامل، مجدي: أشهر الأساطير في التاريخ، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 2003م.

100. ابن كثير، إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ط2، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، 2010م.

101. ابن كثير، إسماعيل: شمائل الرسول، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت.

102. كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م.

103. الكلبي، هشام بن محمد السائب: كتاب الأصنام، ط4، تحقيق: أحمد زكي باشا، مطبعة الكتب المصرية بالقاهرة، 2000م.

104. كلشكوف: الحياة الروحية في بابل، ط1، ترجمة: عدنان عاكف حموي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1995م.

105. الماجدي، خزعل: الدين المصري، ط1، دار الشروق، عمان، 1998م.

106. مبارك، زكي: المدائح النبوية في الأدب العربي، دار المحجة البيضاء، بيروت، د.ت.

107. محاسنة، محمد، محمد الطراونة، محمود الرويضي، محمد العمارة: تاريخ مدينة القدس، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 2003م.

108. المعجم الوسيط

109. مؤسسة الدراسات الفلسطينية: فلسطين تاريخها وقضيتها، المكتبة الجامعية، نابلس، د.ت.

110. مونتسكيو: تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط، ط1، ترجمة: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011م.
111. النبهاني، يوسف بين إسماعيل: جامع كرامات الأولياء، ط3، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، 1984م.
112. نعمة، حسن: ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994م.
113. نعناعة، رمزي: الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، ط1، دار القلم، دمشق، 1970م.
114. النووي، يحيى بن شرف: صحيح مسلم بشرح النووي، ط1، الدار الثقافية العربية، بيروت، 1930م.
115. رياض الصالحين، تحقيق: عبد الله الدرويش، دار الفكر، بيروت، 1996م.
116. نيتشه، فريدريك: عدو المسيح، ط2، ترجمة: جورج ديب، دار الحوار، سوريا، د.ت.
117. النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، ط1، تحقيق: مركز البحوث، دار التأصيل، القاهرة، 2014م.
118. النيسابوري، مسلم بن الحجاج: التمييز، ط1، تحقيق: عبد القادر المدالي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1430هـ.
119. هاشم، محمد يونس: بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 2010م.
120. ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.

121. هوميروس: الإلياذة، تحرير: أحمد عثمان، ص2، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 2008م.

122. هووك، صموئيل هنري: منعطف المخلية البشرية بحث في الأساطير، ط1، ترجمة: صبحي حديدي، دار الحوار، سورية، 1983م.

123. الوردي، علي: خوارق اللاشعور، ط2، الوراق للنشر، لندن، 1996م.

المراجع الأجنبية

1. **Prosopographie chrétienne du Bas-Empire** :Sylvain 'Destephen ،
ACHCB ،Paris ،2008م.

المواقع الإلكترونية

1. اللالكائي، شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، إسلام ويب: <https://bit.ly/3kR95eY>
2. إسلام ويب، الأحاديث الخاصة بتسبيح الحصى، رقم الفتوى: 38736:
<https://bit.ly/3IXPQdS>
3. إسلام ويب، قصة الشجرة ، رقم الفتوى: 200439: <https://bit.ly/30EUzQF>
4. جريفر، مايكل ويسلي: الجبل المرفوع واختيار إسرائيل في القرآن، ترجمة: هدى عبد الرحمن النمر، مركز تفسير للدراسات القرآنية. www.tafsir.net
5. ويكيبيديا، ديونيسوس: <https://bit.ly/3Ge2zXY>
6. الأنبا تكلاهيمانوت، القديسون أهل مغارة أفسس: https://st-takla.org/Saints/Coptic-Orthodox-Saints-Biography/Coptic-Saints-Story_344.html

7. ابن كثير، البداية والنهاية، قصة الذئب وشهادته بالرسالة:

https://islamweb.net/ar/library/index.php?page=bookcontents&flag=1&bk_no=59&ID=636

8. المكتبة الاسلامية، ملتقى أهل الحديث: <https://bit.ly/3CkbN2f>

9. علوي السقاف، الموسوعة الحديثية: كنت مع النبي بمكة... <https://bit.ly/3pWSLee>

10. علوي السقاف، الموسوعة الحديثية: حديث "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة...":

<https://dorar.net/hadith/sharh/87039>

11. علوي السقاف، الموسوعة الحديثية: <https://www.dorar.net/hadith/sharh/63119>

12. ويكيبيديا، القفال: <https://bit.ly/3niixcR>

13. عبد المسيح بسيط، موت المسيح وقيامته:

<http://www.arabchurch.com/forums/showthread.php?t=157902>

14. جاي باريني، هل قام المسيح حقاً من الموت:

<https://arabic.cnn.com/world/2014/04/20/parini-jesus-easter>



**An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies**

THE MYTH IN FAKHR AL-RAZI'S EXEGESIS

**By
Moayyad Ahmad Saeed khalaf**

**Supervised by
Prof. Ihsan Al-Deek**

**This Dissertation is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirement for the Degree of
PHD of Arabic Language and Literature, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National
University, Nablus, Palestine.**

2022

THE MYTH IN FAKHR AL-RAZI'S EXEGESIS

By
Moayyad Ahmad Saeed khalaf
Supervised by
Prof. Ihsan Al-Deek

Abstract

This study tackles myths in Al-Razi's interpretation that its significance lies in exposing the mythical dimensions in the interpretation of the Holy Quran. Also, it shows the representations of some interpretative narratives as there are many myths and legends ruling the civilizations of the ancient world. The nature of this study requires is to consist of an introduction, a prelude, four chapters and a conclusion.

In the prelude, the researcher presents a summary of the life of Al-Razi, a short introduction of Al-Razi's interpretation and the sources of interpretation. Then, the first chapter talks about myths and natural phenomena such as global warming, the moon's division, the function of the meteor in burning demons, the demolition of the mountain, the division of the sea, the fire that does not burn, Solomon's winds, the transfer of Bilqis's throne as well as the heavenly table.

The second chapter talks about the myth in human history and its necessities including Jesus's ascendance to heavens above, resurrecting the dead, the sleep of the Cave's seven sleepers, the death of Solomon (PBUH), Moses's (PBUH) white hand, Mary's food, Noah's (PBUH) longevity.

Chapter three talks about the myths of animals including the birds of Abraham (PBUH), the whale of Moses and Yunus (PBUH), the Eurasian hoopoe of Solomon (PBUH), the prayers of the birds and animals speaking like humans.

Chapter four elaborates on myths in inanimate objects and plants especially talking trees, the palm tree of Mary (PBUH), the lit stick, the explosion of the stone of springs, the stone which escaped in the clothes of Moses (PBUH) and the stone talking like humans.

Also, it tackles the themes, representations of myths as they echo important ancient values giving us a glance over our first roots.

The conclusions include the most important results and recommendations of the study.

Keywords: The myth; Exegesis; Fakhr al-Razi's